رواية واقعية

‘ ملحمة زنجان ’

ZANJAN EPIC

(حدث وقائعها في سنة 1850م)

بقلم المؤرخ
نبيل الزرندي
1843م- 1892م

يقدمها بتصرف
سيفي سيفي
بيرگن / النرويج
2016م

ملحمة زنجان

حدثت في إيران سنة 1850م لأتباع الديانة البابية أثناء حكم العهد القاجاري،
أسماء شخصياتها موثقة ومقتبسة عن كتاب (مطالع الأنوار)
للمؤرخ البهائي 'نبيل الزرندي'، دوّنها ووثقها في سنة 1888م،
نقلاً عن لسان شهود عيان ومشاركين شخصيين
في تلك الحوادث التاريخية قبل مقتلهم لاحقاً في حوادث أخرى مشابهة،
من بينهم الميرزا محمد علي الطبيب الزنجاني، وأبو بصير، والسيد أشرف،
إضافة الى مصادر تاريخية أخرى.
كما استقى بعض أحداثها من مخطوطة كتبها الملاّ حسين الزنجاني،
سطّر فيها كافة المعلومات التي أمكنه تقصّيها
من مصادر مختلفة خاصة بهذه المأساة المفجعة.

ملحمة زنجان

الفهرس

المقدمة		7
المدخل		13
الفصل الأول	أيمان الحجّة	16
الفصل الثاني	بداية المشاكل والاضطرابات	31
الفصل الثالث	الاستعدادات للحرب	39
الفصل الرابع	معارك دامية	48
	شاهد عيان	62
	التماسات الحجّة وأصحابه	73
الفصل الخامس	‘زينب’	81
الفلصل السادس	الجيوش تتجمع	95
الفصل السابع	محسن المؤذن	102
الفصل الثامن	أعراس وأفراح داخل القلعة	105
	أم أشرف	109
الفصل التاسع	الخديعة	112
الفصل العاشر	الإبادة والإفناء	121
	خاتمة الرزايا	141

ملحمة زنجان

المقدمة

في سنتي (49-1850م) أضرمت نيران البلاء والعدوان في كل ناحية من نواحي إيران مرة أخرى، ولم تنج مدينة أو تخل ناحية أو قرية من ألسنة لهيبها وشعواء ضمرائها المدمرة، ووقعت العائلات البابية عموما في كرب وظلم عظيم، فقتلوا وشردوا وعذبوا واغتصبوا وسجنوا واضطهدوا وأحرقت ممتلكاتهم وبيوتهم ومزارعهم وحقولهم ومواشيهم الى درجة أن أي شخص في أية مدينة أو قرية أو بقعة كانت توجه له تهمة الانتماء الى الديانة البابية، تصبح رقبته فوراً عرضة لسيوف الجلادين وصدره هدفاً لخناجر الغوغاء دون سؤال أو جواب؛ فبلغ عدد قتلى هذه الطائفة أكثر من أربعة آلاف نفس حتى ذلك التاريخ، أما فيما بعد ومع توالي عقود القرن التاسع عشر الميلادي واستمرار الاعتداءات والقتل، فقد زاد العدد حتى وصل الى ثلاثين ألفاً. فأصاب الكثير من الأرامل والفتيات والأطفال رزء البؤس والفاقة والعوز، بعدما أصبحوا منبوذين داخل مجتمعهم بدون عائل أو معيل ولا من يرحمهم أو ينظر لحالهم بعين العطف والرحمة، حتى تلفوا جميعاً.

كانت مدينة زنجان من ضمن المناطق والمدن الايرانية المنكوبة التي تعرضت لمثل تلك المآسي والمذابح والحروب، وكان يسكنها أحد كبار المجتهدين المشهورين بالعلم والمعرفة، يدعى 'الملاّ محمد علي الزنجاني'، وهو في الأصل من أهالي محافظة مازندران في شمال البلاد، تلقى دروسه وتعليمه على يد أحد كبار علمائها المشهورين؛ وعندما لقّب بـ "شريف العلماء" كان قد ركز اهتمامه على الفقه العقائدي والشريعة

وأصبح عالماً مرموقاً في جميع أنحاء مملكة إيران وله كثير من الأتباع والمريدين ممن كانوا يعدونه من أولياء الله الصالحين، يجلّون حماسته الروحية ويثقون به وبعلمه أشد الثقة. ويمكن للحَكم المحايد أن يرى فيه رجلاً مسلماً في الجوهر والمظهر، ومدفوع للعمل بإيمان مشتعل وحماسة دينية وافرة.

لقّب 'الملاّ محمد علي الزنجاني'، بطل هذه الملحمة بـ 'الحُجّة الزنجاني'، بعدما سكن مدينة زنجان، واعترف له الكثير من علماء ومجتهدو إيران ورجال الدين فيها، أنه من أقدر علماء زمانه وعصره، لذلك أطلقوا عليه لقب آخر، هو: "حجة الإسلام". ولسعة علمه واطلاعه، زادوا في تكريمه، فلقبوه كذلك بـ "شريف العلماء".

كان 'الحُجّة الزنجاني' ذا فكر مستقل منوّر وبصيرة حرّة نافذة غير ميالٍ لتقليد غيره، لذا تكررت حوادث الجدل العنيف وكثرت النقاشات الحامية بينه وبين مجاميع من علماء زنجان وغيرهم من رجال الدين، فتسبب ذلك في خلق جوّ من التوتر والنقاشات والمجادلات الحامية بين مريديه وغيرهم من أتباع بقية رجال الدين، أدى الى ظهور موجة كبيرة من الحسد والكراهية تجاهه وأتباعه، مما دفع بالشاه ـ بعدما وصلته أخبار هذه المساجلات الحامية ـ الى استدعاءه للعاصمة ومطالبته باثبات ادعاءه وآراءه بمحضره علناً وبحضور جمع غفير من معارضيه ومندوبي رؤساء الدين من طهران ومدن أخرى. ورغم وقوفه وحيداً فريداً دون معين أو مساند مقابل تهجّم وافتراء الجميع، إلا أنه تفوق بكل وضوح على مناظريه وأفحمهم حتى اضطروا للاعتراف ظاهرياً أمام الملك بسلطته وعلمه وتأييد آراءه، لكنهم كانوا في

حقيقة قلوبهم يخالفونه ويعارضونه ويعيبون مسلكه ويتحينون الفرصة للنيل منه وإسقاط منزلته عند الملك وحاشيته.

وُلد الملاّ محمد علي، سنة 1227هـ، ومنذ صباه أظهر فطنة وكفاءة عالية دفعت والده ـ وكان من العلماء المشهورين أيضا ـ الإعتناء بتهذيبه وتعليمه عناية فائقة؛ فأرسله للدراسة في مدينة النجف؛ وهناك كذلك تميز بين أقرانه بفراسته ومقدرته وحماسه المتقد. وكان أصحابه وأقرانه قد أعجبوا أيّما إعجاب بعلمه وذكائه الحاد وقوة تعبيره وسمو أخلاقه.

بعودته من العراق الى إيران، جعل محل إقامته في مدينة همدان، وتزوج من إحدى قريباته وعاش هناك سنتين ونصف تقريبا حتى وافته أخبار وفاة والده؛ عندها قرر ترك همدان والعودة إلى زنجان موطنه الأصلي ومسقط رأسه؛ فكان الاحتفاء والترحيب الشديدين به من قبل أتباعه ومريديه ومحبيه عند وصوله المدينة، عاملاً آخر لأشعال نيران الحسد وإيقاد سعير العداء في مراجل صدور مناوئيه من العلماء والمجتهدين وأتباعهم.

بمجرد أن وصل سمع 'الحجة الزنجاني' خبر دعوة الشاب الشيرازي علىمحمد 'الباب'، الى الديانة البابية الجديدة، أرسل أحد تلاميذه الموثوقين موفداً من قبله الى مدينة شيراز، وكان اسمه 'الملاّ إسكندر'، ليبحث عن حقيقة الموضوع ويرسل له تقريراً مفصلاً بالنتيجة التي يتوصل اليها. فسافر التلميذ من أقصى شمال البلاد الى جنوبها وحضي بمقابلة السيد 'الباب'. ولم يستغرق المندوب كثيراً حتى أعلن أيمانه بدعوته وأصبح من أتباعه، ثم مكث بعدها أربعين يوماً يتعلم أصول وتعاليم

الدين الجديد. من ثم أمره 'الباب' بشد الرحال والعودة إلى مدينته زنجان؛ فوصل في الوقت الذي كان فيه لفيف من علماء المدينة وكبارها مجتمعين في محضر معلمه 'الحجة'. ولم يكد يستقر في مجلسه وينتهي من تبادل التحية مع الحضور، حتى سأله الحجة، إذا كان قد آمن بالأمر الجديد أم لم يؤمن؟

فما كان من المندوب الملاّ إسكندر، إلا أن قدّم للحجة ما كان في جعبته من كتابات 'الباب' وآثاره؛ ثم أضاف قائلا: أنه مهما كان حكم سيده، فإن من واجبه الانقياد له وطاعته.

عند سماع الحجة هذا التعليق، صاح غاضباً:- 'ماذا؟ لولا وجود هذه الجماعة المميزة من العلماء، لكنت أوقعت بك عقاباً شديداً. كيف تجرؤ أن تجعل مسائل المعتقد متعلقة بقبول أو رفض شخص آخر؟!'

وما أن قرأ الحجة صفحة واحدة من كتاب 'قيوم الأسماء' في تفسير سورة يوسف الذي أحضره اسكندر معه، حتى خرَّ ساجداً وهو يقول:-

'أشهد أن هذه الكلمات التي قرأتها الآن، قد صدرت من نفس المنبع الذي ظهر منه القرآن. ومن عرف الحق في ذلك الكتاب المقدس، لا بد وأن يشهد بالمنبع الربّاني لهذه الكلمات، وعليه أن يخضع إلى الأحكام التي يفرضها صاحبها. وإني أشهدكم أيها الحاضرون في هذا المجلس، بأني أجعل طاعة صاحب هذا الظهور واجبة عليّ حتى لو حكم على الليل حكم النهار أو على الشمس حكم الظل، فسأطيع حكمه دون أي تردد، وأعتبر قضاءه هو صوت الحق. وكل من أنكره فإني أعتبره قد أنكر الله نفسه.' وبهذه الكلمات أنهى الحجة وقائع ذلك المجلس المنعقد.

ومما نقل عنه فيما بعد، أنه قال:ـ (بمجرد أن وصلتني كتابات مولاي وقرأت صفحة واحدة من آيات نقطة الفرقان، أحسست بنفسي كشخص خارج عن طوره، واعتنقت دعوته تلقائياً، ولكن بكامل اختياري، وصرت عبده المخلص، لأني شاهدت فيه أنبل معجزات الرسول. ولو كنت قد رفضتها، لكنت في الوقت نفسه قد رفضت دين الإسلام).

المدخل

في العقود الوسطى من القرن التاسع عشر، كانت مناظر المدن الإيرانية كئيبة موحشة كغيرها من مدن العالم، فالبيوت والأسواق والخانات والأزقة والدكاكين والمحلات كانت متشابكة متداخلة بشكل فوضوي مع بعضها البعض، أما شوارعها فكانت ضيقة جداً لا يزيد عرضها في العادة عن أربعة أو خمسة أو على أكثر تقدير ثمانية أقدام، وكانت لا تخلو من الدواب وهي تخترقها باستمرار لنقل الأحمال والبضائع مما يصعب على المشاة اجتيازها دون التوقف ومحاولة فسح الطريق لمرورها أو للقادم أمامهم؛ أما النساء والفتيات فكن يلاقين صعوبة في سيرهن داخل تلك الأزقة في رواحهن ومجيئهن، وكن لا يخرجن من بيوتهن إلا للضرورات القصوى، وإذا ما قابلن في الطريق رجلاً، فيسارعن للتوقف ومواجهة جدران الزقاق لافساح المجال لمروره وابتعاده. أما أرضية المدن فكانت بمجملها ترابية غير مرصوفة تمتلىء بالحفر والأحجار والمطبات الخطرة، مما يوجب على السالك السير بحذر واحتراس شديدين مخافة إنزلاق الأقدام خاصة أثناء ظلام الليل أو وقت نزول الأمطار بعدما ينقلب تراب الأرض الى طين لزج زلق وتمتلىء الطرق وحفرها بالمياه الطينية الراكدة. أما المنازل فلم يكن لها نوافذ تطل على الشوارع، بينما ترتكز جوانبها على جدران البيوت المجاورة المتصلة ببعضها لتستند إحداها على الأخرى، وفي العادة ترتفع بحدود خمسة عشر قدماً تعلوها شرفات بلا حواجز أو أسوار، وكانت تبنى على سطوحها غرف أو مقصورات صغيرة (بيوتونة) مفتوحة من

أحد جوانبها تستعمل كمخازن للأمتعة والغذاء ويكثر وجودها على أسطح منازل الأغنياء والموسورين.

كانت جميع تلك المنازل مبنية من اللَبِن أو الطوب المجفف تحت أشعة الشمس. أما أعمدتها فتصنع من الطوب المشوي بأفران النار. وهذا النوع من الأبنية، قديم ومعروف في مدن بلاد إيران وأرض ما بين النهرين القديمة، حيث له مزايا مفيدة عديدة، فهو رخيص التكلفة وصحيّ ويتكيف مع بقية الأبنية المتواضعة البسيطة، فيمكن بناء كوخ صغير منه، أو قصر كبير مغطى بالفسيفساء ومزين باللوحات البراقة المذهبة. ولكن، كما هو حال كثير من الأمور في هذا العالم، فإن مقابل هذه الامتيازات، تجد هذه المنازل سريعة العطب والتخريب تحت أقل تأثير من عوامل الطبيعة، فلا تحتاج إلى مدافع أو زلازل لتدميرها، بل إن مطراً بسيطاً يكفي لهدمها وتخريب جدرانها. وهكذا يمكن التخيل، كيف أن تلك المدن الشهيرة العظيمة التي كانت مشيدة على ذلك الطراز، لم يتبق منها سوى بعض بقايا من المعابد وأطلال من القصور وأكوام من الأتربة المتناثرة في السهول. ففي بضع سنين قد تختفي أحياء بالكلية دون أن تترك أي أثر إذا أهملت منازلها دون صيانة مستمرة.

ولما كانت جميع مدن إيران مبنية على هذا الطراز والشكل ومن نفس المواد، فمن السهل تصور إختفاء مدن قديمة كثيرة من على سطح الأرض حين تعرضها للزلازل او الفيضانات أو التخريب والحرق على أيدي أعدائها. وهذا هو حال مدينة زنجان، حيث تحيط بها أسوار عالية متينة مزودة بفتحات ضيقة تستعمل للمراقبة

والدفاع وإطلاق النار من أبراجها الشامخة. أما شوارعها وأزقتها الملتوية غير المرصوفة فهي مليئة بالحفر والتجاويف الخطرة تعيق سرعة الحركة والتنقل لأكثر من شخصين في آن واحد. وفي وسط كل ذلك تشمخ قلعة "علي مردان خان" الحصينة، لتطل على منازل المدينة.

الفصل الأول
إيمان الحجّة

كانت استجابة 'الحجة' لرسالة 'الباب' وإعلانه الجريء عن أيمانه بها أمام الملأ في أكبر مساجد مدينة زنجان رغم ما تسببت به دعوة الباب من فوضى واضطرابات ومعارك طاحنة لأهل ايران قبل ذلك، قد حرّك حقد أعداءه وزاد من حسد منافسيه وأتباعهم، فبدأوا بمعارضته وانتقاده وتهجمهم عليه في مجالسهم الخاصة والعامة بعيداً عن أسماعه. ولما كانوا عاجزين عن توهين مقامه العالي في أعين الحكومة والناس والمحبين له ومؤيديه عندما كان مجتهداً يتبع الدين الاسلامي، عزموا على إدانته والحط من مقامه بعد أيمانه بالدين البابي وإتهامه بترويج بدعة جديدة مخالفة للدين الاسلامي ورفض كل ما هو مقدس وعزيز في شريعتهم، وكانوا يعلمون في قرارة نفوسهم أنهم عاجزون عن زعزعة مركزه ومكانته الرفيعة في نظر الملك 'محمد شاه' الذي كان يميل في قرارة نفسه الى أفكاره التجديدية وحكمته الاسلامية، ولم يغب عن بالهم أيضاً كيف تمكن الحجة بعد عدد قليل من الجلسات واللقاءات بفصاحته السحرية ومنطقه الفريد التأثير بقوة على شخصية الملك، عندما طلبه إلى البلاط في طهران للمثول في محضره، وكيف تمكن من كسبه وضمّه الى المعجبين به والمخلصين له؟

أما الآن، فلقد اختلف الوضع، فقد تبدلت الأمور وحانت الفرصة المناسبة للنيل منه ومما يدعو له، بعدما اعتنق أمر 'السيد الباب' علانية دون وجل

وخوف، وبذلك راح رجال الدين يكثفون جهودهم ومساعيهم المحمومة للحصول من الحكومة على أمر بإلقاء القبض عليه ونفيه من مدينتهم للتخلص من منافسته لمراكزهم.

استقر الرأي في النهاية على تحرير عريضة شكوى للملك سعوا فيها الى تلويث سمعة 'الحجة' بكل وسيلة ابتكرتها عقولهم المأكرة، ومما سطروه فيها:ـ 'مع أنه ما يزال يزعم أنه أحد أتباع ديننا الاسلامي، إلا أنه لا يكف عن الإستهانة بنا وتحقير سلطتنا والتقليل من شأننا ومراكزنا بمساعدة تلاميذه. والآن وقد اعتنق أمر 'السيد الباب'، وجعل ثلثي أهالي زنجان[1] يتبعونه وينتمون إلى هذه العقيدة الجديدة البغيضة، يمكن مشاهدة الجماهير محتشدة على أبواب بيته بأعداد كبيرة أكثر مما يتسع المسجد له، ولقد بلغت قوة تأثيره على الناس، أن جرى ضمّ مسجد والده الى المسجد الذي بناه مؤيديه ومحبيه تكريماً له الى بعضها ليصبحا بناءً واحداً كي يكفي لاستقبال كل هذه الأعداد المتزايد من المتلهفين والمريدين ليأتموا به في صلاتهم. ونحن نؤكد كذلك، أنه لن يمضِ وقت طويل، حتى يكون ليس أهل زنجان فقط، بل سكان جميع القرى والمناطق المجاورة من أنصاره ومريديه.'

تعجب الملك من لهجة عريضة رجال الدين التهجمية ولغتها التحريضية الواضحة للنيل من مقام الحجة ومركزه الديني، وتذكر كيف أن زواره من زنجان وأهلها كانوا يتغنون بمقدرة المتهم واستقامته وتقواه، وصمم على استدعاءه وخصومه

1 - يمكن القياس والاستنتاج من ذلك الى سعة حجم انتشار الدين البابي بين أهالي إيران.

مرة أخرى إلى محضره في طهران لمواجهة بعضهم البعض ومعرفة حقيقة الأمر وسبب كل هذا الاختلاف.

في الموعد المحدد، اجتمع في قاعة البلاط مجلس كبير من رجال الدين ترأسه الملك محمد شاه، وحضره كذلك رئيس الوزراء ميرزا آقاسي وعدد من موظفي الحكومة المشهورين والأعيان وكبار مشاهير علماء طهران، وكذلك وفد كبير من رؤساء الدين في زنجان.



المسجد الكبير الذي بناه أتباع الحجة ومريديه بدافع محبتهم له

وبعدما اكتمل حضور المدعويين واستقر الجميع في أماكنهم، طلب الشاه من مقدمي الشكوى دعم ادعاءاتهم بالأدلة والبراهين؛ فأخذوا يستجوبون الحجة ويعددون ما كان يصل أسماعهم من أقواله الغريبة التي أزعجتهم. لكن ما من سؤال طرحوه بخصوص تعاليم دين الاسلام وفقهه، إلا وكان الحجة يجيب عليه بكيفية خلبت ألباب مستمعيه وأثبتت للمليك والحضور يقين براءته.

في النهاية، وبعدما فشل الجميع في سعيهم، عبّر الشاه عن رضائه وقناعته بما قدمه الحجة من أجوبة شافية واضحة وكافئه على الطريقة الممتازة التي نجح بها في دحض مفتريات مناهضيه والتخلص من تهم أعدائه، وأمره بالرجوع إلى زنجان والاستمرار بتقديم خدماته الجليلة لعامة الشعب، وأكد له تشجيعه ودعمه الدائم واليقين من استمرار مساعدته في كل الأحوال، وسأله أن لا يتردد مستقبلاً في إبلاغه عن أي صعوبة أو مشكلة تواجهه حتى يساعده في حلها.

بقي الحجة بضعة أيام في طهران، ثم عاد أدراجه إلى زنجان حاملاً صولجان الانتصار على خصومه وحاسديه؛ فكانت عودته إشارة البدء من جديد لانطلاق موجة هيجان عنيفة من جانب معانديه المذلولين الذين راحوا يبررون فشلهم في اقناع الشاه بألف حجة وحجة. لكنهم كلما كانوا يزيدون في عداوته وبغضه، كان يزداد في المقابل تعاظم إخلاص أصحابه ومحبة مؤيديه له بذات النسبة.

عندما وصلت أخبار اقتراب الحجة الى أبواب المدينة، هبّت جماهير عفوية غفيرة من أهالي زنجان وساكنيها لاستقباله والترحيب به، وقدموا أمامه وبين قدميه قرابين كثيرة من الثيران والخراف والدجاج، ولفّ اثنا عشر شاباً يافعاً، كلاً منهم في الثانية عشر من عمره، مناديل حمراء حول رقابهم، للدلالة على استعدادهم لفداء أرواحهم في سبيله، وساروا بين وقع قرع الطبول ونقر الدفوف وتحت ظلال رفرفة الرايات المرفوعة وسط موكب الاستقبال المهيب الضخم؛ وكان دخوله مدينة زنجان أشبه بدخول القادة المنتصرين في أحد مواقعهم الحربية، وهذا ما زاد من بغض أعداءه وحسد مناوئيه.

وهكذا استمر الحجة في عمله ومهمته، يدعو أهل مدينته لاعتناق الدين البابي الجديد بحماس لا يتوانى وعزيمة لا تفتر، غاضاً الطرف بالكلية عن تدابير أعدائه وما ينشره حسّاده من شائعات بغيضة ضده. وكانت التعاليم الجديدة ومبادئ التسامح الديني والتحرر الفكري التي كان يعلّمها الحجة وينشرها بين مستمعيه بغير انقطاع ولا وجل، قد هدمت أسس الأبنية الواهية الضعيفة الذي اجتهد أعداؤه على بناءها وتشييد معالمها في أذهان الناس، وكانوا ينظرون بعين الغاضب العاجز، وبغيض المشلول الراكد الى نجاح مجهوداته المثمرة في تمزيق أوصال سلطتهم وهدم أساسات أبنية مؤسساتهم في مقابل تزايد محبته في قلوب الناس.

كان الحجة قد سبق وبعث سرّاً قبل موعد مناظرته الأخيرة مع المجتهدين في بلاط الملك، مبعوثاً خاصاً آخر الى شيراز يدعى 'مشهدي أحمد'، حاملاً هدايا رمزية إلى السيد 'الباب'، وعريضة سأله فيها النصح والارشاد. فتزامنت عودة الحجة من العاصمة طهران الى مدينته زنجان، مع عودة مبعوثه من شيراز أيضاً، وكان يحمل خطاباً مختوماً من السيد 'الباب' الى الحجة، سلّمه إياه في الوقت الذي كان جالساً يعلم طلابه في المسجد وهم يحيطون به ويستمعون اليه. وعندما فتح الخطاب، فوجيء الحجة أن السيد 'الباب' يؤكد على تلقيبه بدرجة "حجّة" ويأمره أن يعلن من على منبر المسجد دون تردد تعاليم دينه الأساسية على المستمعين.

ما كاد الحجة يطّلع على أمر مولاه وتعليماته ويدرك رغبته، حتى تملكته عزيمة وقوة عجيبتين وصمّم في قرارة نفسه، عزمه على تنفيذ كل ما أمر به مولاه في ذلك اللوح. فما كان منه إلا أن نهض ملتفتاً الى تلاميذه ليصرفهم في الحال ويأمرهم بترك

كتبهم وكراساتهم ويعلن لهم انتهاء فترة الدروس والتعليم والمحاضرات وعزمه على عدم متابعة التدريس مستقبلاً، وقال عبارته الشهيرة:

'طلب العلم بعد حصول المعلوم مذموم.'!

بعد إعلان الحجة عن أيمانه الواضح بكل تلك الجرأة والجسارة أمام أهل زنجان، وبعد انتصاره على المجتهدين ورجال الدين في اجتماعاتهم في محضر الملك، وبعد عودته المنصورة وما صاحبها من أفراح وسرور الى موطنه، وبعد ما كان من أمر بناء مؤيديه للمسجد الكبير أكراما له؛ كل ذلك وغيره، كان سبباً في هبوب رياح ضغينة هوجاء محملة بغيوم الحسد الأكول لتتراكم في سماء زنجان؛ تجمع كل ذلك ليزيد من سيول الحسد وسواقي الضغينة تجاه شخصيته، وما زاد من لهيب نيران تلك الكراهية، رغبته المتأججة في تنفيذ أمر السيد 'الباب' بكل دقة، وإمامة المصلين في يوم الجمعة بدلا من إمام الجمعة الأصلي الذي كان قد توارث هذا المنصب أباً عن جد منذ سنين طويلة؛ وعندما أقدم الحجة على الحلول محل الإمام، كان اعتراض الأخير عنيفاً وشديداً تجاه هذا التجاوز المرفوض، وبقي الإمام يردد معترضاً ويصيح أنه امتياز مطلق له ولآبائه من قبله، وإنه أخذ الولاية بذلك من السلطان بنفسه ولا يمكن لكائن من كان أن يغتصبه منه مهما علت منزلته.

فكانت إجابة الحجة: 'إن هذا الحق الذي منحك إياه الملك، قد استُبدل الآن بالولاية التي منحها لي القائم بنفسه، وقد أمرني أن أؤدي هذه الوظيفة علناً، ولن أسمح لأي شخص أن يعتدي على هذا الحق إطلاقاً. وإذا فكرت بمهاجمتي أو

الإقدام على أي عمل مضرّ يسيء إليّ، فسأكون مستعداً للدفاع عن نفسي وعن حياة أصحابي.'

كان إصرار الحجة الجريء على إتمام ما جاء في رسالة 'الباب' من أوامر، دافعاً قوياً للجوء رجال الدين الحاقدين في زنجان الى التعاون والاتفاق مع إمام الجمعة المهزوم، وتقديم شكوى جديدة الى ميرزا آقاسي رئيس الوزراء بدلاً من الملك هذه المرة، مدّعين أن الحجة قد تمادى كثيراً في تصرفاته وتحدى صلاحية مؤسسة دينية راسخة قديمة، وتعدى على حقوقهم الشرعية التاريخية. لذلك ـ وبعد كل هذا التجاوز المرفوض ـ لم يتبق أمامهم سوى الرحيل مع عوائلهم وترك المدينة للحجة ومن معه، ليكون هو المسؤول الوحيد عن مصير الأهالي ودينهم ومقدساتهم. وبغير ذلك، فعلى رئيس الوزراء السعي الحثيث للحصول من الملك محمد شاه على فرمان واضح يقضي بطرده من مدينتهم فوراً، بل ويستحسن أن ينفى من أراضي المملكة بكاملها، لأنهم يعتقدون تماما أن تركه على هذه الحال والسماح له البقاء في المملكة فيه خطر داهم على جميع المسلمين وعلى النظام برمته.

ونظراً لإلحاح إمام الجمعة وشيخ الإسلام ومن معهما من رجال الدين الذين فقدوا صبرهم تجاه تصرفات الحجة ومريديه غير المقبولة، اضطر رئيس الوزراء في النهاية الى عرض الأمر على الملك محمد شاه غير متناسي دعم إدعائهم المغرض ببعض تأييداته المبطنة بطريقته المعهودة؛ فلقد اشتهر رئيس الوزراء بدهائه الحاد ومؤامراته الخبيثة، مع أنه لم يكن يميل في قلبه الى مناصرة نظام رجال الدين السائد في المملكة ويبغض معتقداتهم وشعائرهم. وكحل وسط وتفادياً للصدام واندلاع أعمال الفوضى،

أمر الملك بنقل سكن الحجة من زنجان إلى العاصمة طهران، وأرسل مبعوثاً خاصاً اسمه 'قِليج خان'، يحمل مرسومه الملكي الى الحجة آمراً باستدعائه.



بيت الحجة الزنجاني في مسقط رأسه مدينة زنجان

باستلام المبعوث 'قليج خان' فرمان الملك، أسرع للسفر إلى زنجان، ووصلها في نفس اليوم. فقابل 'الحجة' وأطلعه على الأوامر الملكية التي صدرت إليه والقاضية بتركه الاقامة في زنجان؛ وبهذا استعد الحجة للسفر على عجل وتحركا معاً متوجهين إلى العاصمة.

بوصوله الى طهران، قابله رئيس الوزراء هاشاً باشاً وأظهر له بالنيابة عن الشاه وعن نفسه، شدة اشمئزازه من عداء علماء زنجان الكبير له والذي حدث بسبب سلوكه الجريء تجاههم، وأخبره أن رجال الدين قد أقلقوه بعرائض الاحتجاجات المستمرة، التحريرية منها والشفهية، كما أخبره أيضاً أن الشاه لا يميل إلى تصديق كل ذلك، وهو شخصياً لا يصدق إدعاءهم بأنه ترك دين آبائه وآمن بدين السيد 'الباب' الجديد، وأخبره أن الشاه قد أمر بدعوته الى العاصمة ليدحض هذه الافتراءات والأكاذيب، كما أعرب عن حزنه الشديد لسماع أن رجلاً بهذا المقام العالي، أسمى في العلم والمعرفة والمكانة من السيد 'الباب'، قد اختار الانضمام تحت لواء هذا الشاب.

كان الحجة جالساً يستمع منتظراً انتهاء رئيس الوزراء من كلامه ليجيب ويرد عليه. وما أن فرغ الميرزا آقاسي من حديثه، حتى قال له الحجة: إن الأمر ليس كما تظن وتعتقد، فلو أوكل لي 'السيد الباب' حتى أحط الأعمال لخدمته في منزله، لأعتبرت ذلك شرفاً كبيراً لا تبلغه أسمى وأعلى الإنعامات الملكية.

بسماع رئيس الوزراء هذا الجواب، صاح مندهشاً: "ذلك لن يكون أبداً."

فعاد الحجة ليؤكد له اعتقاده الراسخ المتين بدين 'الباب'، وأن ذلك السيد الشيرازي الشاب، هو نفس الشخص الذي ينتظره هو والملك وجميع البشر على الأرض بكل الشوق واللهفة ويدعون الله لمجيئه ليل نهار، وهو مولى الجميع ومخلّصهم. إنه الموعود المنتظر.

لم يتأخر رئيس الوزراء بنقل الموضوع بحذافيره إلى الملك محمد شاه فوراً، مظهراً له شدة حذره وقلقه وتخوّفه من السماح لهذا المعاند القوي ـ الذي يعتقد فيه المليك أنه أكفأ علماء المملكة قاطبة ـ بالاستمرار في مساعيه وجهوده في نشر معتقده الجديد بغير إعاقته وقطع السبيل عليه، لأن في ذلك خطراً عظيماً على أمن الدولة من جهة واحتمال قيام رجال الدين عليه من جهة أخرى. فلقد خشي رئيس الوزراء ـ الذي كان يحرك شؤون البلاد ويقودها بأصابع الفوضى والجهل ـ أن يميل الملك برأيه الى معتقد الحجة أو يدين بدين السيد 'الباب'، وبالتالي يؤول الأمر الى فقدانه مركزه وما يتنعم به من الرفاهية وبحبوحة العيش.

أما الشاه فكان غير ميّال لتصديق مثل هذه التقارير، ونسبها إلى عامل الحسد والغيرة من أعداء الحجة، فأمر بعقد اجتماع خاص مرة أخرى، طالب فيه الحجة بدعم رأيه وإثباته بالبرهان والدليل أمام مجمع من علماء العاصمة وغيرهم.

فبدأت الاجتماعات تتكرر بحضور الملك كرات ومرات بين الحجة لوحده من جانب، ومجموعة المجتهدين ورجال الدين من جانب آخر. أظهر الحجة في جميعها تفوقه عليهم مرة أخرى وأثبت صحة دعوة 'الباب' بكل فصاحة وقوة، مبطلاً ومفنداً بذلك جميع احتجاجات الذين حاولوا معارضته ودحض دعوة سيده.

خلال سير تلك الاجتماعات المطولة، وبعدما بدأت المناقشات العقلانية تتحول الى مجادلات عنيفة فارغة وتنحى لمهاجمة شخصية الحجة وكيل الاتهامات جزافاً اليه كيفما اتفق، ما كان من أجوبة الحجة القوية وأدلته وبراهينه الساطعة، إلا أن انقلبت أحوال رجال الدين في نهاياتها من موقف المهاجمين الى موقف المدافعين الضعاف عن أفكارهم ومعتقداتهم بمختلف الوسائل، وعجزوا في النهاية من التغلب عليه بكل الحجج والسبل واغلقت جميع المنافذ في وجوههم ووقعوا في حيص بيص ولم يجدوا لهم مخرجاً ينقذهم من ورطتهم التي أوقعوا أنفسهم فيها. وبعدما شاهدوا في خصمهم كل هذه القوة والايمان والاعتقاد الراسخ بصحة دينه الجديد، اقترحوا عليه تقديم معجزة خارقة للعادة، ليثبت لهم وللحضور صحة مدعاه! فما كان من الحجة إلا أن صاح بهم بغضب شديد قائلاً: 'أية معجزة أكبر من أنني تمكنت لوحدي ودون مساعدة أي شخص وبقوة حججي وبراهيني من الانتصار عليكم وعلى جميع المجتهدين ورجال الدين في زنجان وطهران؟'

كانت الطريقة الفائقة التي دحض فيها الحجة مزاعم واتهامات خصومه الواهية، قد أكسبته مزيداً من حظوة مليكه الذي لم يعد يعبأ من ساعتها بتمويهات وتدليس أعدائه ومناوئيه. ورغم أن جماعة علماء زنجان وعدداً من رجال الدين في طهران قد أفتوا فيما بينهم خلال جلساتهم الخاصة بكفر الحجة وارتداده عن دين الاسلام وضرورة إعدامه، إلا أن الملك لم يأبه لذلك حينما وصلت الى مسامعه فتواهم، واستمر في منح الحجة مزيداً من الإنعامات والتأييدات الشاهنشاهية، وكرر له تأكيده أن يكون واثقاً من مساعدته دائماً.

كل ذلك جرى تحت سمع وبصر رئيس الوزراء ميرزا آقاسي الذي كان يتحرق خشية وخوفاً من تملك الحجة لقلب مليكه واحتمال حلوله في محله لتولي شؤون منصبه. ومع أنه في قرارة نفسه كان معادياً للحجة ويتمنى التخلص منه بكل وسيلة ممكنة، إلا أنه لم يجرؤ على مقاومة نفوذه المتنامي علناً، أو الاعراب عن كراهيته أمام تلك الشواهد الواضحة للحظوة الملكية، لذلك اجتهد في إخفاء حسده وحقده، وبدأ يتملق الحجة عن طريق زياراته المتكررة الى مسكنه وبما كان يقدمه له من الهدايا خوفاً من ضياع منصبه.

في واقع الأمر، كانت إقامة الحجة في طهران كسجين محدود الحرية والحركة، وليس كضيف حرّ في حركته وتنقلاته، فلم يكن بمقدوره مغادرة بوابات العاصمة الى أي مكان آخر، ولم يُسمح له بلقاء أو محادثة من يريد من أصحابه أو مقابلتهم، حيث كانت عيون العسس وجواسيس رئيس الوزراء تترصده في كل مكان وتحسب له كل خطواته. واستمر الحال على هذا الشكل من التقييد حتى انتشرت الأخبار بوفاة الملك محمد شاه سنة 1848م، وإرتقاء إبنه ناصر الدين شاه العرش من بعده.

وبهذا حصلت عدة تغييرات في الحقائب الوزارية ومن ضمنها استبدال رئيس الوزراء ميرزا آقاسي، برئيس وزراء جديد هو ميرزا تقي خان، أمير النظام، وكان هذا رجلاً شديداً قاسياً على العكس من سلفه، فقد ظنّ أن مبدأ القوة والعنف وسبيل الحزم والاعدامات والقتل هي الوسيلة الوحيدة لوقف ما يعم المملكة من فوضى واضطرابات وثورات القبائل والأقاليم. ومن أولى قراراته وما أقدم على فعله،

قراره بتوطيد العزم على تشديد حبس الحجة وتضييق الخناق عليه والبحث عن طريقة ماكرة للقضاء عليه والتخلص منه دون إثارة الشبهات لدى محبيه أو تحرك سخط مريديه وثورة أتباعه.

عندما أوصل بعض الإصدقاء الى الحجة 'السجين' أخبار ما عزم عليه رئيس الوزراء وأدرك مقدار الخطر الكامن الذي يتهدد حياته، عزم على ايجاد سبيل فوري لمغادرة العاصمة قبلما تتغير الأحوال وتفلت الفرصة من يديه، فما كان منه إلا تدبر ملابس بسيطة لرجل من العامة ليرتديها بعد أن خلع عنه زيّ رجل الدين، وغادر طهران بهدوء وخرج من بوابتها ماشياً على قدميه في أول ساعات الليل قبل أن يغلقها الحرس في موعدها المحدد. وبهذا نجح في النفاذ والخروج تحت نظر وسمع الحراس والانضمام الى أتباعه الذين كانوا ينتظرونه ويشتاقون لرجوعه الى زنجان.

كان خبر اقتراب موعد وصول الحجة مرة أخرى الى موطنه، مثار فرح وسرور شديدين بين أتباعه من سكانها، ومن بين هؤلاء، صديق مقرب إليه يدعى 'الكربلائي ولي عطّار'، حيث بدأ هذا الرجل بنشر خبر عودة صديقه الحجة في الأسواق والمساجد والساحات والشوارع العامة بحماسة شديدة، وهذا ما تسبب بتبلور موجة عداء خصوم الحجة من جهة، وانطلاق مظاهر الطاعة والإخلاص من جانب مريديه من جهة أخرى، فهرعوا رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً للترحيب بالحجة وتجديد تأكيد ولائهم ومحبتهم له، فبلغ عدد مستقبليه عند أبواب المدينة نحو خمسة عشر ألف شخص. وبذلك دخل موطنه دخول المنتصرين.

***

والآن بعد أن أصبح الحجة من أتباع السيد 'الباب' واشتهر ذلك بين الناس علناً، أضاف إلى أصحابه وتلاميذه ومريديه القدماء، كل من اعتنق الأمر الجديد خلال الفترة الماضية، فجاء لملاقاته جم غفير من الأغنياء والمرموقين والجنود والتجار وحتى من الملاّوات ورجال الدين، وقابلوه بالترحاب على بعد محطة أو محطتين من المدينة ورافقوه إلى منزله، لا كلاجئ عائد، ولا كمتوسل يطلب الراحة ولا كخصم له من القوة ما يوجب الاحترام، بل دخل سيداً عزيزاً. وبذلك لم يجسر أحد من أعدائه أو خصومه أن يسأله عن سبب خروجه من طهران ومغادرتها والعودة للسكن في مدينة زنجان.

غضب حاكم زنجان (مجد الدولة)، خال ناصر الدين شاه ـ وكان رجلاً قاسياً متحجر القلب ـ غضباً شديداً حينما سمع بخبر عودة رجل مشهور بإثارة المتاعب الى مدينته، وصعق من عفوية مظاهر تلك الحفاوة وخروج المستقبلين بهذه الكثرة والحماسة لاستقباله، وإذ اشتد به الغضب واليأس، أمر بالقبض على إثنين من المتحمسين من أتباع الحجة، ملفقاً لهما على عجل تهماً كاذبة وخطيرة، لم يتمكنا أمام ما رتبه من حبكة خيوطها، الدفاع عن نفسيهما. فما كان منه إلا أن أمر بجلد الأول وقطع لسان الكربلائي. ثم أشاع بين الناس لتبرير فعلته، ما كان من أمر جريمتهما الملفقة وأسباب عقوبتهما.

ومع أنه كان في الباطن يكره الحجة، إلا أنه بقي يتظاهر بصداقته ويتمنى له الخير، مبرراً دمويته بمختلف الأسباب والحجج باعتبارها مسألة قانونية لا علاقة لها بما يعتمل في صدره من كراهية وحقد. فكان كثيراً ما يزور الحجة في منزله أو

المسجد ويُظهر له الاحترام الفائق أمام أتباعه تصنعاً، كما فعل رئيس الوزراء السابق من قبل في طهران. ومع ذلك بقي يتآمر على حياة الحجة سراً ويتحين الفرصة ليكيل له الضربة القاضية.

*****

الفصل الثاني
بداية المشاكل والاضطرابات

كان حاكم المدينة من الساخطين على وجود شخصية بهذه القوة والهيمنة بين مواطني مدينته، وعندما شاهد مظاهر الفرح والسرور العفوية وكبر حجم جموع المستقبلين والمرحبين تنطلق بهذا الشكل الكبير، زاد ذلك من اشتعال جمرات عداءه الكامنة تحت رماد المخادعة والمخاتلة، وظهر لهيبها بهبوب رياح حادثة بسيطة ليست بذات أهمية، فاستغلها لاقتناص فرصة الانتقام وإظهار ما في قلبه من بغض وكراهية للحجة وأتباعه. فقد نشبت مشاجرة صغيرة بين طفلين من زنجان، الأول ابن أحد أتباع الحجة، والثاني ابن شخص من المتشددين. فما كان من الحاكم إلا أن أمر حراسه بالذهاب الى بيت الطفل الأول للقبض عليه وإيداعه الحبس المشدد. وهذا ما دعا أتباع الحجة للذهاب اليه يرجونه العفو عن المسجون الصغير. وعندما قابل طلبهم بالرفض الشديد وبالغ في ردهم وتعنيفهم؛ حاولوا تحقيق ذلك مقابل دفع فدية مالية. ومع ذلك، رفض الحاكم عرضهم بشدة، وهدد بعقابهم وحبسهم إذا لم يكفوا عن محاولاتهم ويعودوا الى منازلهم ويتركوا الطفل في الحبس. فما كان منهم إلا أن ذهبوا الى الحجة يشكون اليه هذا الموضوع البسيط ويطلبون منه تدخله ومساعدتهم؛ فكتب رسالة الى الحاكم يخبره فيها إن الطفل السجين صغير السن غير راشد وغير مسئول عن أفعاله، وإذا كان يعتقد أنه مستحق للعقاب، فليعاقب والده بدلاً عنه.

ذهب الوالد مرة أخرى ومعه مجموعة من أصحابه الى الحاكم ليقدم له الرسالة، لكنه عاد بعد ساعة ليخبر الحجة برفض الحاكم الشديد في الاستجابة الى طلبه؛ ولما وجد الحجة أن التماسه قد رفض، جدد كتابة احتجاج آخر، وأوكله لأحد أصحابه المحترمين واسمه 'مير جليل' وكان من ذوي المكانة الاجتماعية والنفوذ، وأمره بالحرص على تقديم الاحتجاج للحاكم بنفسه.

عند وصول مير جليل الى بوابة قصر الحاكم، كان صاحب القصر قد سبقه باصدار أوامره الى حرس البوابة بعد السماح لأي شخص بالمرور، فاستشاط القادم غضباً من رفضهم وطريقة مقابلته السيئة وعدم احترامهم له، وراح يهددهم باقتحام البوابة بالقوة إذا استمروا في رفضهم وعنادهم. ولما شاهدوا منه وممن معه العزم الأكيد على تنفيذ غرضه والدخول لمقابلة الحاكم، رضخوا لتهديداته بعدما أبلغوا الحاكم بحراجة الموقف وما دار بينهم من مشادة كلامية عنيفة بلغت حدّ وضع الراحات على مقابض السيوف؛ فدخل 'مير جليل' القصر- وعلامات الغضب لم تزل مرسومة على معالم وجهه ليقابل الحاكم الغاضب، فتكلم معه بقوة وحزم أجبرته على الرضوخ والإفراج عن الطفل وتسليمه له.

لم يكن رجال الدين بحاجة الى أكثر من هذه الحادثة كي يتفقوا على المبالغة في إظهار سخطهم وغضبهم الشديدين من جرأة 'مير جليل' ومن كان معه، ومن جسارته في تحدي حراس القصر، وكأنهم كانوا ينتظرون حصول مثل هذا الاحتكاك لصب مزيداً من الزيت على النار. فذهبوا في اليوم التالي الى منزل الحاكم لمقابلته وتقديم احتجاجهم العنيف وعدم رضاءهم على تصرفه مستنكرين عليه

رضوخه بهذه السهولة لمثل هذه التهديدات التي أراد خصومه إخافته بها، وتمادوا في تحريضهم حينما عبّروا له عن خشيتهم بأن مثل هذا اللين والخضوع من جانبه، سيشجع الحجة وأتباعه وغيرهم من العامة مستقبلاً على فرض مطالب أخرى جديدة أكبر وأعظم، وأنه لن يمض وقت طويل حتى يتمكن الحجة وأتباعه من الاستيلاء على زمام السلطة في المدينة وحرمانه من أي مشاركة في إدارة دفتها، وتمكنوا من إقناعه بالموافقة على إصدار أمر بالقاء القبض على 'الحجة' نفسه، مدعين أن ذلك سيقلل من تأثيره ونفوذه بين الناس ويبعد عنه مريديه.

خدع الحاكم بهذه التدليسات المضلّة وانطلت عليه الحيلة رغم سذاجتها، فوافق على هذه المجازفة الخطيرة وفكر باصدار أمر الى حراسه كي تذهب مجموعة كبيرة منهم الى منزل الحجة لإلقاء القبض عليه وإحضاره مقيداً.

أما رجال الدين فاستمروا يؤكدون للحاكم مراراً، أنه ليس هناك في هذا التصرف أي خطر على الأمن والسلام في المدينة بأي حال من الأحوال، بل على العكس، فبالقبض على الحجة سيدعّم أسس السلام ويفرض الأمن ويثبت قوته ومقدرته على التحكم بمقاليد السلطة حتى تجاه أقوى شخصيات المدينة.

وللتأكيد على سهولة تنفيذ هذه المهمة 'البسيطة'، وللدلالة على تأييدهم ومناصرتهم له ولابعاده الشبهات عنه، طلبوا تسليمهم أمر إلقاء القبض وترك مهمة التنفيذ لهم ولأتباعهم بدلاً من تدخله المباشر وإرسال حرسه الخاص. فأرسلوا خلف اثنين من أنصارهم من شقاوات المدينة المشهورين بالغلظة والجسارة في فرض الأتاوات على سكان مناطقها، للتطوع بالقيام بهذا العمل. كان اسم الأول 'پهلوان

أسد الله' والثاني 'پهلوان صفر علي'. وبحضورهما أمرهما رجال الدين بحمل ما يلزم من السلاح واصطحاب قوة كافية من الرجال والذهاب الى بيت الحجة للقبض عليه وتسليمه للحاكم مغلول اليدين.

لم يصدق الحاكم ما يسمعه ويشاهده من قوة مناصرة رجال الدين وأتباعهم له، وتهلل وجهه فرحاً حينما شاهد مثل هذه الشجاعة والجرأة والتجشيع تحيط به، ووجد في ذلك فرصة جيدة للاختباء خلف الأستار وعدم الكشف علناً عن نواياه، ووعد كلا الشقيين ومن معهما بمكافئات مجزية إذا حققوا له هذه الخدمة الكبيرة.

خرج الشقيّان من بيت الحاكم مزهوين بما حضيا به من ثقته ومساندة حاشيته وما لقياه من تشجيع رجال الدين ومباركتهم ودعاءهم لهما بالتوفيق والنجاح، وتوجها نحو مربض الخيل ليمتطيا حصانين قويين بعد أن ارتديا ملابس القتال ووضع كل منهما خوذة حديدية على رأسه حاملين سيفيهما تتبعهما عصبة مسلحة من جماعتهم الأوباش من أحط طبقات الأهالي كانت تقف بانتظارهما عند باب منزل الحاكم لتنفيذ عملية الاعتقال. ثم تحركوا وهم يطلقون صيحات الحرب ويلوحون بسيوفهم في الهواء عالياً يتبعهم حشد آخر كبير من العامة بدافع الفضول لمعرفة حقيقة هذا المشهد الغريب؛ بينما بقي رجال الدين في تلك الأثناء، منشغلين بتحريض كل من إلتقوا بهم من الأهالي، يشجعونهم على مناصرة مجموعة المهاجمين ودعم جهودهم واللحاق بهم الى بيت الحجة لإعتقاله.

ما كادت عصبة الأشرار تصل إلى بداية الحيّ الذي يسكنه الحجة، حتى سادهم الصمت والترقب، حينما قطع عليهم الطريق أحد أنصار الحجة الأشداء واسمه

'مير صلاح' وبرفقته سبعة من أصحابه المسلحين، وكأنهم كانوا على علم مسبق بهدفهم؛ وعندما سألهم عن وجهتهم والغاية من حضورهم بهذا الشكل الغريب وما هو سبب ارتدائهم ملابس القتال، انبرى أحد الشقيين وهو ما يزال على صهوة جواده ليستخف ويتهكم بمجموعة 'مير صلاح'، وراح يشتمهم ويهينهم ويهددهم ملوحاً ومن معه بسيوفهم، فما كان من 'المير' إلا أن استلّ سيفه ولكز حصانه وانقض عليه ليضربه على رأسه ويجرحه جرحاً بليغاً في جبهته.

عندما شاهدت جماعة الأشقياء منظر الدماء تنزف من جرح صاحبهم لتسيل على صفحة وجهه رغم ارتداءه خوذة حديدية ودرع ثقيل وسيف لمّاع، ورغم ما كان يتظاهر به خلال الطريق من جسارة عالية وتهديدات مرعبة، وبعدما شاهدوا شدة جسارة مير صلاح واستعداده لصد أي فرد منهم وسمعوا منه كلمات التهديد والوعيد، أصاب الخوف كامل عصبتهم وراحت أعينهم تتلفت ذات اليمين وذات الشمال تتفحص المكان باحثة عن ثغرة بين الحشود المحيطة بهم للاهتداء الى منفذ مفتوح للعودة والفرار؛ ولم يستغرق ذلك منهم وقتاً طويلاً، حيث سحب كلا منهم عنان حصانه للالتفاف به الى الخلف ومطلقين أرجل خيولهم لتخترق الصفوف هاربين الى جهات مختلفة.

لم يمض إلا بعض الوقت، حتى انتشر خبر هذه الحادثة المخجلة كالنار في الهشيم بين سكان مختلف أنحاء المدينة، وأصبحت مدار تندرهم في مجالسهم يكررون تمثيل أحداثها وما كان من حالة رعب المهاجمين وخوفهم حينما شاهدوا الدماء تنزف من جرح صاحبهم، وكيف فرّوا هاربين أمام مجموعة صغيرة من مريدي

الحجة رغم كثرة عددهم؛ وهذا ما ترك في نفوس رجال الدين والحاكم حقداً ورغبة شديدة في الانتقام لكرامتهم وضرورة رد الصاع صاعين في وقت مناسب آخر. بينما بقي الأشقياء يتحينون الفرصة ويرتبون الكمائن في طرقات المدينة وأزقتها للقبض على أحد أتباع الحجة والنيل منه لإعادة الثقة والاعتبار لأنفسهم أمام الحاكم ورجال الدين ومن كانوا معجبين بشجاعتهم الكاذبة.

وشاءت الصدف أن يقابلوا بعد أيام، أحد أتباع الحجة ماشياً في سوق المدينة وهو أعزل من السلاح، فتحرشوا به واختلقوا معه مشكلة لا سبب لها، ثم تكالبوا عليه من كل ناحية ليوسعوه ضرباً ولكماً، ولم يكتفوا بذلك، بل سحب أحدهم فأساً كان يحملها في حزامه وضرب الرجل بقوة على رأسه، فكسر جمجمته وأسقطه أرضاً. ولما وقع الضحية فاقد الوعي لا يستطيع حراكاً، زادوا من ضربه كثيراً، ثم رفعوه على ظهر حصان وأخذوه الى مقر الحاكم والدماء تنزف منه بغزارة، وما أن وصلوا حتى سحبوه ليرموا به على الأرض أمام أقدام الحاكم دون حراك.

عندما شاهد أحد مجتهدي المدينة من الحاضرين في مجلس الحاكم واسمه 'السيد أبو القاسم'، حالة عجز الرجل وهو ما زال يتنفس بصعوبة شديدة وفي رمقه الأخير، استشاط غضباً ومدّ يده ليخرج مطواة مخبئة تحت عباءته ثم قفز من مكانه ليبدأ بطعن المسجى في صدره عدة مرات، وهذا ما دفع الحاكم وشجعه لاستلال سيفه أيضاً والنهوض من مكانه والتقدم لطعن الضحية في فمه، فتشجع بقية المجتمعون والمأمورون ورجال الدين واحداً تلو الآخر، ووجدوا الفرصة مواتية لشفاء غلّهم وحقدهم والتظاهر بمساندة الحاكم ومناصرته، فتزاحموا على الضحية يتدافعون

بالراح والمناكب لينهالوا عليه بما يحملونه من مختلف اسلحتهم وليجهزوا على سيئ الطالع المدمّى. فكان يتلقى ضرباتهم وهو فاقد الوعي ويلفظ أنفاسه الأخيرة بين أيديهم وتحت أقدامهم.

كان هذا الرجل هو الشيخ محمد توبجي، أول من قتل وأسلم الروح في زنجان في 16 مايو/ أيار سنة 1850م، أي بعد حوالي خمسة شهور من عودة الحجة الى زنجان وابتداء مناهضة حاكم المدينة ورجال الدين له.

وبدلاً من أن يطفئ هذا الدم المسفوك والروح التي أزهقت وطريقة الغدر التي تمت بها هذه الجريمة نار الثأر والانتقام وحقد الحاكم وأعداء الحجة من رجال الدين ويهدئ من ضغينتهم، إذا بكل ذلك يزيد من تأجيج نيران انفعالاتهم وتعزيز تصميمهم على إيقاع العقاب نفسه على بقية أصحاب الحجة. وإذ تشجعوا بموافقة الحاكم الضمنية على تنفيذ نواياهم وشاهدوا طعنة سيفه داخل فمّ الضحية، عزموا على قتل كل من يتمكنوا القبض عليه دون استئذان مسبق منه أو من مسؤولي الحكومة أو شرطتها، وتعاهدوا ألا يستريحوا حتى يطفئوا نيران روح الايمان الموقدة الجديدة التي يعتبرونها كفراً وشركاً شنيعاً.

ولإعطاء قادم أفعالهم وجديد جرائمهم صبغة قانونية وشرعية دينية، كتب الحاكم ورجال الدين تقارير مزيفة إلى الملك أظهروا فيها تخوفهم وحيرتهم من نوايا الحجة ومخططاته طالما يتبعه هذا الجمع الكبير من المريدين.

كان الملك 'ناصر الدين شاه'، شاباً صغير السن دون العشرين من العمر، وكانت قوات جيشه قد انتهت لتوّها من قمع حروب داخلية ضارية ومعارك قبلية

شرسة متتالية في أنحاء المملكة؛ وعندما بدأت تصله أنباء بداية اندلاع اضطرابات وغليان بين سكان مدينة زنجان واحتمال تبلور ذلك الى عصيان جديد في مقاطعة أخرى من إمبراطوريته، اشتعل غضباً، وبتحريض من الصدر الأعظم 'رئيس الوزراء' ميرزا تقي خان، وتشجيع رجال الدين الذين أعلنوا الحرب الدينية 'الجهاد' في مدينة زنجان ضد الحجة وأتباعه. أصدر الملك فرمانه الذي يأمر بقتل جميع البابيين ونهب ممتلكاتهم واستباحة نسائهم وبناتهم. وكان وصول هذا الفرمان إلى زنجان في يوم الجمعة الثالث من رجب 1266 الموافق لشهر مارس من سنة 1850م.

وبذلك بدأت مراجل القتال والمعارك بقذف حممها في جميع الأرجاء.

الفصل الثالث

الاستعدادات للحرب

لم يكد يصل فرمان الملك الى يد حاكم زنجان، حتى بدأ رجال الدين يتحايلون على الحاكم المغرور لإرسال منادين في جميع شوارع المدينة وأسواقها، ليعلنوا محذرين السكان بأن كل من يريد الانضمام إلى الحجة وأصحابه ويقف في صفهم، فسيجعل حياته وحياة عائلته في خطر وسيعرض أملاكه وثرواته للمصادرة والسلب ويعرض زوجته وأولاده للذلّ والمهانة. أما من يود ضمان الراحة والشرف والخير لنفسه ولعائلته، فليهجر الحيّ الذي تسكنه تلك الجماعة المارقة ويبتعد عنهم، ويطلب حماية السلطان وينضم الى صفوف جماعة الحاكم.

أرتعب السكان عند سماع هذه الإنذارات العنيفة وأدركوا أنها نذر الحرب، واضطربت أحوال المدينة وهاجت وماجت الناس وراح كل منهم يقطع ما بيده من عمل ويغلق متجره ويترك مقصده، وسارع الكل الى بيوتهم ليجمعوا ذويهم ويتفقدوا أحوال عوائلهم وليحملوا ما يستطيعون عليه من متاعهم، وكانوا يتساءلون عن مواقع تجمع الفريقين وفي أي جهة من المدينة هما، بعدما انقسمت من فورها إلى معسكرين منفصلين متخاصمين، فلقد كان ذلك النداء والتحذير بمثابة امتحان شديد لإيمان الجميع وخاصة من كان ما يزال متردداً في ولاءه لأمر السيد 'الباب' ودعوته. وتسبّب هذا الاعلان المشؤوم في حدوث أعظم الحوادث المؤثرة والبلايا المحزنة لاحقاً، فأوجب تفريق الآباء عن أبنائهم وتباعد الإخوة عن إخوتهم وأخواتهم

وأقاربهم، وبدا أن روابط القربى والدم والمحبة الدنيوية قد انفصمت عراها تماما في ذلك اليوم الصاخب العجيب، فنسيت العهود والمواثيق والطاعات الأرضية لتحل محلها طاعة إلهية أقوى وأقدس، ووقعت زنجان فريسة لأقسى هياج وفوضى وارتفع الضجيج والصياح من أفراد الأسر الواحدة إلى عنان السماء وهي تتشظى وتنقسم من شدة اليأس الممزوج بصيحات الشتائم والكفر والتجديف التي كان يطلقها أحد الفريقين تجاه خصومهم؛ تقابلها من الناحية الأخرى، صيحات الفرح والابتهاج الصادرة من الذين نبذوا منازلهم وأقرباءهم وانضموا لنصرة أمر الحجة عن طيب خاطر.

كان معسكر الحاكم وأهالي المدينة يدوي بصخب الاستعدادات الحامية للمعركة القادمة التي خطط لخوض غمارها وتأجيج ضمرائها رجال الدين سراً في ظلمة لياليهم تحت أنوار شموعهم وسرجهم الباهتة، وجاءت التعزيزات للمدينة على عجل من مختلف القرى المجاورة بأمر الحاكم وبتحريض رجال الدين الذين دعموه بكل قواهم، وسادت الفوضى والاضطرابات في كل مكان وتشتت العوائل وتفرق الأهل والأصحاب وتكتل كل فريق ينادي على أتباعه وجماعته يدعوهم للانضمام الى صفه ويقدم له الوعود والإغراءات، وتدافع الأهالي في كل الاتجاهات يبحثون عن زوجاتهم وأطفالهم وهم يحملون ما خفّ حمله وغلا ثمنه من أغراضهم وممتلكاتهم، فكانوا يأتون ويذهبون فرادى وجماعات كالمجانين ذاهلين ضائعين يبكون على ما تركوه وما لم يقدروا على حمله، وتفرقت العائلات وانقسمت، ودفع الآباء أبناءهم للخلف واحتمت الزوجات بأزواجهن ولجأ الأطفال لأمهاتهم وسط البكاء والصراخ

من الجميع، وتركت المنازل مقفرة بأكملها على عجل، وأرسل الحاكم جنوده إلى القرى المجاورة لجمع مزيد من الرجال القادرين على حمل السلاح للمشاركة في الحرب الدينية المقدسة.

لم يعِق الحجة ما كان يشاهده من مناظر هذا الهياج المتعاظم بين أهل مدينته، فصعد فوق منبر مسجده ليخطب في الجموع المحتشدة من مريديه بصوت جموري قائلاً: 'إن يد القدرة قد فصلت في هذا اليوم، الحق من الباطل، وفرّقت بين نور الهداية وظلمة الضلالة، وأنا لا أريد أن تتحملوا ضرراً بسببي، وإن غرض الحاكم الوحيد ورجال الدين الذين يساعدونه هو القبض عليّ وقتلي، وليس لهم مطمع في شيء آخر، فليس لهم ظمأ إلا شرب دمي، ولا يقصدون إيذاء أحد سواي، فكل من يبتغي منكم المحافظة على نفسه وذويه من الأخطار التي نحن معرضون لها، أو يتردد في التضحية بحياته لأجل الأمر الجديد، فليبادر بالخروج من هذا المكان فوراً ويعود من حيث أتى قبل أن تفوته الفرصة ويقطع السبيل عليه.'

لم تجد كلمات الحجة صدى لها في آذان مستمعيه وقلوب مريديه، وغلبت عليهم محبته وقرروا أن لا يقفوا مكتوفي الأيدي، فراحوا بدورهم ينظمون أمورهم ويستعدون للدفاع عن أنفسهم، وحمل كل منهم سلاحه للدفاع عن نفسه وعائلته أمام ما يشاهدونه من الجموع الثائرة التي بدأت تطلق التهديدات ضدهم وتنظم صفوفها لمحاربتهم. وعندما استقر رأي المتجمهرين من الرجال والشباب حوله، لم ينس الحجة أن ينصحهم أثناء أداء الصلوات بعدم التعدي أو التجاوز قط أثناء

قتالهم، وطالبهم بضرورة الالتزام بالدفاع عن النفس فقط. فكان يقول لهم: "يا إخواني، لا تخجلوا مني، ولا تظنوا لأنكم أصحاب 'صاحب الزمان' أنكم ستقهرون العالم بحد السيف. فاعلموا، والله يشهد على كلامي، أنهم سوف يقتلونكم ويحرقونكم ويرسلون رؤوسكم ونساءكم وأطفالكم هدايا من مدينة إلى أخرى وسيشيعون بينكم الويل والثبور. إن حقيقة نصرتكم للحق هو في استعدادكم المستمر للتضحية بأنفسكم ونسائكم وممتلكاتكم، فمشيئة الله في كل زمان تقضي بأن يجعل دماء المخلصين من أحبابه دهناً لإنارة مصباح دينه، وقد سمعتم من قبل بالتعذيب الفضيع الذي تحمّله البابيون من شهداء مازندران الأبرار، فقد قُتلوا جميعاً لمجرد تأكيدهم على ظهور 'المهدي الموعود' قد ظهر في مدينة شيراز. وإني أقول لكم الآن، بأن من لم يكن منكم مستعداً لتحمل ما سيحصل من عذاب وآلام وسفك دماء واضطهاد وتعذيب وجوع وعطش وحصار، فلينسحب من فوره ويذهب الى أهله، أو حتى إن شاء الانضمام إلى الجانب الآخر، فلا حرج عليه في ذلك مطلقاً، لأن مصيرنا جميعا في النهاية، هو الذبح والموت. أليس سيدنا ومولانا 'الباب' مسجوناً الآن في قلاعهم وفي قبضة أيديهم؟"

في ذلك اليوم، استطاع الحاكم تجنيد أكثر من ثلاثة آلاف رجل من زنجان والقرى المجاورة لها واختار موقعاً مناسباً لمعسكرهم في الجهة الخالية المفتوحة المتاخمة لحدود المدينة من طرفها الآخر، واتخذ من القلعة العالية التي كانت في تلك الجوار مقراً لهم، ورفع رايات الجيش وأعلام المملكة عليها، ونصب لهم الخيام ووزع عليهم الأسلحة والعتاد وزودهم بالمدافع والخيول والسيوف والحراب، وأمر بحفر الخنادق

وإقامة المتاريس واشترى لمؤونتهم أعداداً كبيرة من المواشي والأنعام وخصص عدداً من الضباط كمسؤولين عن التعيين والأرزاق ونصب الأقزان والقدور الكبيرة لطبخ الطعام.

ما كان من 'مير صلاح' وبعض أقرانه عندما شاهدوا عزم الأعداء الجدّي للمواجهة، واستمرار وصول تجهيزاتهم الكبيرة واستعداداتهم الحثيثة للحرب والنزال، وضخامة اتساع حجم معسكر قوات الحكومة وكثرة ما ألحق به من الأبنية والمنازل القريبة من القلعة التي ضمت اليه لاستغلالها في المهام العسكرية، واطلعوا على كثرة أعداد الخيول والبغال والعربات وما تحمله من معدات القتال والعتاد، وشاهدوا صفوف الخيام ومواقد النيران وفوقها قزانات الطبخ وأعداد الضباط والجنود والمتطوعين من الأهالي؛ ما كان منهم إلا أن ذهبوا لمقابلة الحجة ليخبروه بما يجري من الاستعدادات والتهيئة للحرب في تخوم المدينة المقابلة، واقترحوا عليه كإجراء احترازي، تغيير مسكنه وضرورة نقل مقر إقامته من منزله داخل المدينة إلى قلعة 'علي مردان خان' الحصينة الواقعة على مقربة من منزله في الجهة المقابلة لمعسكر الجيش خشية تطور الأمور وتفاقم الوضع وانقطاع السبل بهم. فاستصوب الحجة رأيهم وأمر أصحابه جميعا بالانتقال للسكن داخل القلعة ونقل النساء والأطفال والسلاح والعتاد والمؤونة التي يحتاجونها معهم.

كانت القلعة كبيرة جداً، لدرجة انها تتسع لعدة آلاف من السكان ومواشيهم ودوابهم، ولما وجد أصحاب الحجة أنها مسكونة من قبل عوائل كثيرة من الفقراء

والغجر والبدو الرحّل والمسافرين وماشيتهم، طلبوا منهم تخليتها والانسحاب منها مقابل استبدالها بمنازلهم التي أخلوها لتوهم.

وهكذا بدأت رايات أصحاب الحجة ترفرف عالياً فوق جدران قلعة 'علي مردان خان' وأسوارها وأبراجها الضخمة، وأصبحت مقراً وسكناً لهم في مقابلة معسكر جيش أعدائهم من الجهة الأخرى تتوسطها أحياء المدينة شبه المهجورة.

استمرت حالة الهدوء بين الفريقين لعدة أيام، لكنها لم تخل من بعض الاحتكاكات والمناوشات الفردية هنا وهناك، أما بعدما استكمل الجيش استعداده لشن هجومه العنيف على الملتجئين داخل القلعة؛ فلم تكد فرقة من القوات المحتشدة تطلق نيران مدفعيتها على جدران وأسوار القلعة التي زاد الأصحاب من استحكاماتها وتقوية أبراجها، حتى تقدم من الحجة أحد شجعان القلعة وكان اسمه 'مير رضا' طالباً السماح له مع مجموعة من رفاقه بالهجوم على مقر الحاكم ومباغتته والقبض عليه وإحضاره مقيداً إلى القلعة. لكن الحجة لم يستحسن هذا الرأي ولم يوافق على مثل هذا الطلب، ونصحه بعدم المجازفة بحياته وحياة رفاقه في هذا السبيل، كما أوضح له أن ذلك سيعتبر عملاً عدوانياً مباشراً ضد موظف حكومي كبير، إضافة الى أنه أخ والدة الملك، وبذلك قد تثار مشكلة كبيرة ليس لها ما يبررها.

عندما وصل سمع الحاكم ما عزم عليه ذلك السيد الجسور، تعجب كثيراً لمثل هذه الجرأة والقابلية وأخذ منه الخوف كل مأخذ، مما دفعه الى اتخاذ قرار بترك معسكر مدينة زنجان والانتقال الى مكان آخر أكثر أمناً. وعندما سمع أحد رجال الدين عزم الحاكم واستعداده للرحيل، أسرع لمقابلته في منزله في محاولة منه لاقناعه

بالعدول عن هذا المسلك ملفتاً انتباهه لما سيسببه ذلك من حدوث اضطرابات جسيمة وخذلان كبير بين صفوف الجند، وقد تعقبها حالة احتقار له في نظر رؤسائه ومرؤوسيه؛ ولاثبات مدى إخلاصه، أبدى هذا السيد استعداده للهجوم بنفسه على القاطنين في القلعة كشهادة منه على جديّة عزيمته وقدرته على إحضار الحجة بذاته مقيداً ليضعه بين يديه.

استبشر الحاكم خيراً بشجاعة رجل الدين هذا، وأفرحه اقتراحه كثيراً بعدما شعر بصدق نواياه وحسن فطرته وتأمل من وراء هذه الخطوة الجريئة اختصار الوقت وتقليل ما يتوقع حدوثه من موت ودمار وخسائر بالأرواح والمعدات، وما سيحصل عليه من الملك من رتب عالية وهدايا ثمينة وأوسمة عسكرية رفيعة، إذا حقق مثل هذا الهدف الكبير.

وهكذا تسلح المجتهد مع ثلاثين رجلاً من أقرانه بالبنادق والسيوف والحراب ولبسوا عدّة الحرب بين تشجيع المحيطين بهم وهتافهم وامتطوا الجياد وتوجهوا نحو القلعة وهم يطلقون صرخات الحرب.

كانوا ما يزالون في طريقهم يقطعون أزقة المدينة وشوارعها الخالية تلاحقهم عيون من صادفهم من المارة ولمّا لم يصلوا الى هدفهم بعد، حتى قابلهم اثنان من فرسان خصومهم وسيفيهما الطويلين ظاهرين من تحت عبائتيهما، فظن المجتهد ومن معه أنهما قادمان للهجوم عليهم وقتالهم، فارتعب واستبد به الخوف تماماً، واذا به يسحب رسن حصانه ليميل به الى الوراء، ثم لكزه بقدميه في بطنه بشدة يحثه على الجري، وانطلق هارباً لا يلوي على شيء، وبقي المسكين يعدو خائباً خائفاً وجماعته

تعدو خلفه ليلحقوا به حتى رجع كل منهم إلى منزله. وبهذا نسي تماماً ما سبق وقطعه للحاكم من عهود وما أظهره من بطولة، وبقي مختبئاً في منزله مغلقاً باب الغرفة عليه طيلة بقية ذلك النهار يرفض زيارات أصحابه ومن جاء ليطمئن عليه. أما الذين كانوا معه، فتفرقوا شذر مذر وتركوا العزم على متابعة مهمتهم وهم في حالة من الذلة وخيبة الأمل، يدارون وجوههم من أصحابهم خجلاً. وفيما بعد، وصل علمهم أن الفارسين اللذين قابلوهما أثناء الطريق، لم يكونا يقصدان مهاجمتهم، بل كانا في طريقهما لإتمام مأمورية خاصة كُلفا بها.

بعد تلك الحادثة المخجلة التي أصبحت مدار التندر بين جنود الحاكم، مثل التي سبقتها من حكاية الشقيّن. سرعان ما وقعت جملة مناوشات واطلاق نار فردية وتجاوزات من مؤيدي رجال الدين وجنود الحاكم ضد أتباع الحجة الواقفين على أسوار القلعة، انتهت جميعها بالفشل من التقرب الى حدودها أو أسر فرد من رجالها. وكان كلما هجم حشد من رجال المدينة على القلعة بتحريض من المجتهدين، كان الحجة يأمر بضع عشرات من أصحابه الذين فاق عددهم الثلاثة ألف رجل، بالخروج اليهم وتشتيت شملهم، وبقي ينبّه أتباعه في كل مرة على ضرورة عدم التجاوز وسفك دماء أعدائهم دون مبرر، وأن تقتصر مهمتهم على الدفاع عن النفس فقط، منبهاً على ضرورة الالتزام في المحافظة على حرمة النساء وحياة الأطفال؛ ولقد سمع منه مراراً وهو يكرر القول: 'إننا مأمورون بعدم إثارة حرب دينية بأي حال من الأحوال مهما كان موقفهم عدائياً تجاهنا.'

بالعودة الى حاكم زنجان وما أصابه من الخوف والرعب بعدما وصلته أخبار عزم رجال الحجة على إعتقاله وأسره، بدأ باتخاذ كافة الاحتياطات اللازمة للمحافظة على نفسه، وأحاط مسكنه بفصائل الضباط والجنود المدججين بالسلاح وأمرهم بتشديد الحراسة واليقظة وعدم السماح لأي شخص بمقابلته، إلا بعد التأكد من هويته ومهمته وأخذ موافقته الشخصية بذلك. ثم راح يكتب تقارير مزيفة كاذبة ملفقة لرئيس الوزراء ميرزا محمد تقي خان، الأمير الكبير، ملأها بالتحريض والأكاذيب والدسائس عن سير أحداث المعارك والمناوشات ومجريات الأمور وما يقوم به الحجة وأتباعه من أعمال عدوانية مخلة بالأمن العام، وزاد في تقريره كلما خطر في ذهنه من اتهامات كاذبة، خشية أن يستبدله رئيس الوزراء بحاكم آخر أقوى منه وينتزع من يديه السلطة ويضعف نفوذه ويبدد ثرواته.

الفصل الرابع
معارك دامية

أحدثت هذه التقارير المزيفة مفعولها المرتجى، خاصة ورئيس الوزراء كان يتحيّن الفرص لقتل الحجة والتخلص منه، وبناء عليه، أستطاع الحاكم الحصول على فرمان ملكي ممهور وموقع من الشاه أرسله بدوره إلى أحد كبار الضباط، واسمه 'السيد علي خان'، وهو برتبة مقدّم في فرقة 'فيروز كوه'، يأمره بالزحف الى زنجان فوراً مع جحفله الكبير المكون من الخيالة والمشاة، لمساعدة حاكم زنجان في القبض على الحجّة 'محمد علي' ومن معه في داخل القلعة والتخلص منهم.

وبمجرد وصول الضابط المتحمس وجنده الى معسكر الحاكم، تحرك دون إبطاء آمراً جنوده بالاستعداد لمحاصرة القلعة للهجوم عليها والتخلص ممن يحتمون بها، وأعطى أوامره من فوره في البدء بإطلاق النار عليهم؛ وبهذا اشتعل فتيل مخزن بارود النزاع، وراح يزداد اتساعاً يوماً بعد يوم، وبدأت امدادات الرجال والمسلحين والفرسان تتوالى للانضمام الى الطرفين من جميع الأنحاء كل حضر لدعم أحد الفريقين، واستمر المقدم يحث قواته لأيام طويلة ويشجعهم على المهاجمة والاستبسال رغم ما كانوا يتكبدونه من خسائر بالأرواح والمعدات ووقوع العديد من القتلى من الجانبين.

بعد مرور عدة أيام من المعارك الشرسة والقتال الدامي بلياليها، أدرك المقدم 'علي خان' بوضوح تام، ما أصاب جنده من هزيمة مخجلة بعد مشاهدته حجم

الخسائر في المعدات والأرواح وكثرة القتلى والجرحى بين صفوف قواته، فلم يجد بداً من الكتابة الى العاصمة طالباً المزيد من التعزيزات العسكرية. فقررت الحكومة أن ترسل مقدّم آخر اسمه 'جعفر قلي خان'، وهو أخو اعتماد الدولة؛ لكن هذا الرجل اعتذر لرئيس الوزراء ميرزا تقي خان، بكل جرأة وشجاعة وقال له: 'إني لست ابن زياد لأشهر الحرب على طائفة من الأسياد ورجال العلم الذين لا أعلم شيئاً عن معتقداتهم، ولكني مستعد لمقاتلة الروس أو اليهود أو غيرهم من المشركين'.

وكرر عدد آخر من القواد امتناعهم عن خوض مثل هذه الحرب لذات الأسباب وتعذروا بأسباب مشابهة، وكان منهم القائد 'مير سيد حسين خان' من فيروز كوه، الذي أغضبت جسارته رئيس الوزراء، فأمر بطرده من وظيفته وأذله بعدما علم بتفضيله ميوله الدينية على واجباته العسكرية. وكذلك رفض العديد من الضباط التابعين لطائفة "العلي اللهيين"، الذين ذهبوا الى الحرب كواجب عسكري بعد صدور الأوامر لهم، إلا أنهم سرعان ما انسحبوا منها بمجرد معرفتهم حقيقة الموضوع، حيث أصدر قائدهم أمره بالامتناع عن محاربة أصحاب هذا المعتقد الجديد. لذلك انسحبوا رافضين القتال، لأنهم كانوا على إطلاع بما ذكرته كتب تراثهم الدينية، وإنه عند حضور عسكر 'جوران' إلى عاصمة الملك، يظهر 'رب الزمان'، واعتقدوا أن هذه النبوءة الدينية قد تحققت الآن، إضافة الى ما كان لديهم من الأشعار والقصائد الدالة على تاريخ وسنة ظهوره، ووجدوا انطباق هذه أيضاً على تلك السنة. لذلك كانوا مقتنعين بأن تلك الدعوة هي الحق الذي ظهر، وطلبوا إعفاءهم من الانضمام إلى الحرب لأنهم غير قادرين على خوضها بسبب تخوفهم أن

يكونوا في جانب المعتدي الظالم على أصحاب الدين الحق. ونقل عن بعضهم قولهم لأصحاب الحجة: 'إننا سنساعدكم في الحروب المقبلة، عندما يتقوّى نسيج دينكم'.

وبالاختصار عندما لم يشاهد كثير من ضباط جيش الحكومة في أعدائهم من أصحاب القلعة سوى الإخلاص والتقوى والتديّن، تردد البعض منهم في قرارة نفسه سراً ولم يستعملوا كل قوتهم وقواتهم في الحرب محاولين بشتى الوسائل تجنب دخول حقيقي في معركة أشعل أوارها رجال الدين.

استمر القتال على هذا المنوال بين هجوم وانسحاب وكرّ وفر، والرجال يتساقطون من الطرفين، حتى أصدر رئيس الوزراء أمراً جديداً إلى أحد قادة الجيش الملكي ويدعى 'صدر الدولة الإصفهاني' بالتوجه الى زنجان لمقاتلة الحجة ورجاله. وكان هذا القائد خارجاً على رأس فوجين من العسكر قاصداً آذربيجان لمهمة عسكرية أخرى، فوصلته الأوامر الكتابية بإلغاء مهمته المقررة والتوجه فوراً إلى زنجان لمساعدة القوات التي حشدتها الحكومة هناك. ومما كتبه رئيس الوزراء له: 'إنك مأمور من مليكك أن تخضع فئة المفسدين التي اجتمعت في زنجان وما حولها. ومن موجبات الشرف لكم أن تسحق آمالهم وتبيد قواتهم، ومثل هذه الخدمة الفريدة، تستوجب لك أكبر كرامة في نظر الشاه وأعظم احترام وإجلال في نظر الناس'.

كان هذا الفرمان المشجع قد أثار مخيلة 'صدر الدولة' وطموحه، وظن أنها فرصة مناسبة للحصول على امتيازات ورتب عسكرية عالية، فقام للحال بتغيير مسار قواته والتوجه إلى زنجان على رأس الفوجين من جنوده. وحال وصوله، بدأ

بتنظيمها وتنسيق فعالياتها مع قوات الحاكم التي كانت ما تزال مرابطة في زنجان ومنشغلة في قتالها الشرس مع جماعة القلعة، فضمها الى قواته ليشكل منها جيشاً ضخماً بات تحت تصرفه، ولم ينتظر طويلاً، إذ أصدر أوامره فور اكتمال الاستعدادات بشن هجوم مشترك كبير على القلعة والمدافعين عنها، ووقف يراقب سير المعركة ويصدر الأوامر والتعليمات لضابطه وهو يحلم بانتصار ساحق سريع.

كان دخول 'صدر الدولة' الى مدينة زنجان على رأس قوات كبيرة من قبيلته وهو يمتطي ظهر جواده مزهواً بمن يتبعه من العسكر وعربات المدافع وكثرة النياشين على صدره، قد أثار فرحاً كبيراً بين أهالي زنجان المعادين لأتباع الحجة، فخرج غالبيتهم من البيوت والدكاكين والخانات القريبة من معسكر جنود الحاكم الى الشوارع، تاركين شؤونهم وأعمالهم وراحوا يرقصون في شوارع المدينة وأزقتها، بينما ارتقى بعضهم أسطح المنازل يرقصون على أنغام الموسيقى وقرع الطبول تعبيراً عن سعادتهم بدخول هذا العدد الضخم من القوات وقرب تحقق أملهم في انتهاء المعارك واستقرار الأوضاع وعودة المقاتلين وتحقيق النصر على أعدائهم من أصحاب الحجة.

لم تكن قوات 'صدر الدولة' هي آخر من دخل زنجان من العسكر والإمدادات، بل بقيت تتوارد التعزيزات الضخمة على المدينة في كل يوم واستمرت لعدة أيام، وكان من ضمنها قوات 'شاهبار خان'. فاجتمع تحت إمرة هذين الضابطين مائتين من الخيالة المدربين، ثم وصل بعدهم 'خان شاهسون' ومعه أيضاً مائتان من خيالة الأفشار وخمسون من رجال المدفعية، ومعهم مدفعيّ ميدان ثقيلين ومدفعيّ هاون. وبذلك تجمع جيش عرمرم ضخم خارج المدينة بعث أملاً كبيراً في قلوب أهل

زنجان لتحقيق النصر القريب. وهكذا تزود حاكم زنجان بكل ما رغبه من الرجال والسلاح والمساعدات من العاصمة طهران وأحيط بكبار زعماء القبائل ومشاهير قواد العسكر في البلاد.

انتهت جميع تلك الاستعدادات في اليوم الخامس من شهر رمضان، ثم اندلعت من بعدها على الفور أشد أيام القتال والمعارك التي سجلت في يوميات الحصار شراسة، حيث أحيطت القلعة وبيوت البابيين بالجيوش من جميع الجهات، فوقفت مجاميع العسكر في أقرب النقاط الممكنة وتسلق غيرهم أسطح البيوت وترصد آخرون في نهايات الشوارع ووضعت المتاريس في كل مكان، بينما استدارت فصائل كبيرة من القوات الى الجهة الأخرى خلف أسوار القلعة وعلى مسافات لا تصلها إطلاقات رصاص القناصة الرابضين فوق أسوارها واستعدت هذه القوات لصدور أوامر الهجوم، بينما كانت في نفس الوقت مستمرة في اطلاق نيران مدافعها على القلعة ورجالها دون انقطاع.

فاجتمع الفوج الخامس بقيادة مصطفى خان القاجار، ومعهم خيالة الخمسة لصدر الدولة، والفوج الخاص لعلي خان، وفوج الشاه بقيادة العقيد محمد آقا، ودمج معهم خيالة الأفشار بقيادة محمد علي خان وبرفقته الرائد نبي بيك وخيالته ومجموعة من أهالي زنجان المخلصين يتخللهم مجموعة من رجال الدين وهم يشجعون الجند ومن معهم ويعدونهم بنعيم الجنة وسعادتها ورضاء الله؛ كل هؤلاء تجمعوا بجيش واحد كبير عرمرم وأكملوا استعداداتهم عند نهاية اليوم.

في فجر اليوم التالي والسماء ما زالت مظلمة ولما تظهر خيوط أنوار الفجر بعد، دبّت حركة حثيثة حذرة هادئة في معسكرات الجند، حيث نام الجميع في الليلة الماضية بملابسهم العسكرية الكاملة متهيئين لتنفيذ ما سيصدر اليهم من أوامر جديدة في أي لحظة، وعندما صدرت الأوامر لهم بالاستعداد للهجوم المفاجئ، راح كل منهم يوقظ رفيقه بكل هدوء ويحذره بضرورة السكون والاستعداد للهجوم والحرب دون إثارة ضوضاء قد تنبه أعدائهم. وعندما شاهد قواد الجيش والضباط اكتمال تجهيزات صفوف جنودهم ووصلهم خبر استعدادهم وجاهزيتهم، أمروا صف الضباط بتنظيم تشكيلات قتالية والبدء بالزحف نحو القلعة بجحافل متراصة صامتة مستغلين خيمة الظلام المعتمة. في نفس الوقت، راح الجنود يشجعون بعضهم بعضاً آملين سرعة احراز النصر مع كل هذه الجحافل.

كانت الخطة تقضي بترك أمر إعلان ساعة الصفر ولحظة بدء إطلاق النار حتى لحظة انتباه أصحاب القلعة وابتداء إطلاق أولى الرصاصات عليهم لصدّهم.

وهكذا بقيت جموع الجند تزحف بهدوء من عدة جهات وكأن شيئاً لم يكن، فمنهم من سلك شوارع المدينة واتجهوا بهدوء نحو بيوت البابيين القريبة من القلعة مباشرة، ومنهم من إلتف من النواحي البعيدة عبر الحقول والأراضي الزراعية لمهاجمة مؤخرتها، بينما دارت قوات أخرى لتهاجم المدافعين عن القلعة وبيوت البابيين من الجانبين. أما فرق الموسيقى العسكرية المصاحبة من حملة الأبواق والطبول، فكانت الأوامر تقضي بمرافقتهم جموع الجند وعدم إطلاق نفير الهجوم إلا عند سماع أولى طلقات الجانب الآخر.

كان قواد الجيش لا يعلمون أن المحاصَرون داخل القلعة قد سبق ووصلهم خبر استعدادات العسكر وما خططوا له، وكانوا يتوقعون هجومهم الشامل، إلا أنه لم يكن لديهم علم بساعة الصفر ولا بوقت التنفيذ؛ ومما زاد في طمأنتهم، ما ساد تلك الليلة من هدوء وسكون. لذلك كان أكثرهم يغط في نومه منتظراً ما يخبئه اليوم التالي بعدما طال انتظارهم طوال الأيام السابقة؛ ومع ذلك، فلقد وضعوا عشرات المراقبين والحراس الشجعان على أسوار القلعة وأبراجها ليترصدوا بعيون يقظة أية تحركات مشبوهة تبدر من معسكرات عدوهم ليعلنوا عنها.

في تلك الأثناء، انتبه بعض حراس القلعة لمنظر غير عادي أمامهم، فلقد تغير لون الأرض والحقول الممتدة خلف القلعة وتبدل ليبدو مثل سجادة إيرانية مزخرفة بألوان داكنة في مختلف الأرجاء، فمرة كانت تزداد عتمة الألوان في جانب، ومرة تعكس أضواء خافتة من جانب آخر، لكن الأمر الذي حيّرهم هو ما ساد المنطقة من صمت وهدوء بقي يلف تلك المساحات الشاسعة غير مفصح عن شيء مميز؛ ومع ذلك، أثارت تلك الصورة الغريبة وصوت الدبيب الخافت حالة من الشك في قلوب الحراس، فراح كل منهم يلفت انتباه صاحبه الى غرابة ذلك المنظر وضرورة التحقق منه، وسرت بينهم حالة من التوجس والحذر، فراحوا يسارعون للتأهب في الدفاع عن أنفسهم وقلعتهم.

عندما وصل للحجة خبر احتمال وجود زحف من جنود الأعداء، أسرع ليرتقي أحد أبراج المراقبة ويمدّ بصره نحو ما كان يشير اليه المراقبون متفحصاً تلك المناطق، فأدرك وجود هجوم كبير ضدهم، وعلى الفور أصدر أوامره بالاستعداد

للقتال والتزام الهدوء والحذر وعدم البدء بإطلاق الرصاص حتى تتقلص المسافات وتصبح جحافل الجنود على مقربة من مرمى النيران.

كانت قلعة علي مردان كبيرة الحجم جداً وعالية الأسوار وقوية البناء تتخلل جدرانها فتحات للمراقبة وكوّات لاطلاق الرصاص، فلقد بنيت لتستخدم كملجأ لسكان المدينة عند تعرضها للأخطار في حالات الحرب، وأعدت أيضاً كحامية للجند ومستقراً لهم في تنقلاتهم وسفرهم عبر المملكة لتنفيذ مهامهم العسكرية. لذلك كانت كافية لاستيعاب آلاف الرجال المدافعين مع خيولهم وأسلحتهم ومؤنهم وأغذيتهم وعوائلهم.

بقي الحجة ومعاونوه لثوان قليلة يراقبون ويتحققون ويصدرون أوامر الاستعداد للقتال بسرية وهدوء في نفس الوقت الذي راحت أخبار الهجوم المرتقب تتوالى عليهم من جميع حراس جوانب القلعة وأبراجها المختلفة، فأيقن المحاصرون من صحة أمر الهجوم وأنه واقع لا محالة بعدما بدأت سحب الغبار تعلو وترتفع، وأصوات صهيل الخيل تقترب، وزمجرة دواليب عجلات عربات المدافع تصل أصواتها اليهم بما لا تخطئه الأذن أو العين، فتأكد المحاصرون أنها جحافل الجند وصفوف العسكر تتعمد المشي بتمهل وخفّة داخل مروج الحقول وأزقة المدينة وتتحذر من إصدار أصوات تلفت الانتباه اليهم.

كان رجال القناصة داخل القلعة قد أكملوا حشو بنادقهم وتصويبها وهم فوق أسوار القلعة وأبراجها منتظرين لحظة إصدار الأمر لهم باطلاق النار.

في نفس الوقت، كان جميع سكان القلعة قد وصلهم خبر الهجوم الوشيك، وراح كل واحد منهم يسارع الى موقعه، فأمر الحجة مجموعة كبيرة الفرسان بامتطاء خيولهم وتنكب أسلحتهم والاستعداد لانتظار إشارة الإنطلاق للخروج حالما يفتح لهم الحرس بوابة القلعة لمهاجمة قوات الجيش القادمة من أمامهم مباشرة ومحاولة مشاغلتهم وتشتيت شملهم قدر المستطاع لفسح المجال أمام مجاميع أخرى من الفرسان للخروج والالتفاف خلف القلعة لمهاجمة جنود البراري والحقول، بينما وقفت مجموعات أخرى من الفرسان والراجلة بكامل الاستعداد متحفزين وسيوفهم ورماحهم بين أيديهم ينتظرون الأوامر كقوات احتياط لتنفيذ أي مهمة توكل اليهم.

كما كانت الخطة تقضي بخروج راجلة الأصحاب المختبئين داخل بيوت البابيين لمهاجمة الجند المنتشرين داخل شوارع وأزقة المدينة لتشتيت شملهم وتخريب متاريسهم والتخلص من خطرهم.

بقي رجال الفريقين ملتزمين الصمت والحذر، هؤلاء ينتظرون انتباه أهل القلعة لتقدمهم حتى يبدأوا بهجومهم الشامل، وهؤلاء ينتظرونهم ليصبحوا على مسافة رؤية كافية لينالوا منهم برصاص بنادقهم.

وحالما شاهد الحجة أن المسافة أصبحت كافية والخطر صار محدقاً، أصدر أمره الى حراس الأسطح والأبراج باطلاق الوجبة الأولى من الرصاص باتجاه صفوف الجند المتقدمة، فدوت أصوات البنادق مرة واحدة وأحدثت رجّة شقت سكون الفجر وأيقظت من بقي نائماً من أهل المدينة بذهول ورعب، ثم تبعتها

موجات متتالية من إطلاق الرصاص على الجنود الذين راحوا يردون بالمثل ليمطروا القلعة وأنحاءها بالرصاص والقنابل والدانات.

سهل كبر حجم كراديس الجند وترابط جحافلهم في وقوع إصابات كبيرة بينهم مع أول دفعة إطلاق رصاص. وعندما جفلت خيل أصحاب القلعة المرابطين خلف بوابتها وتقافزت من دوي أصوات الرصاص، أمر الحجة بفتح البوابة لخروج الفرسان، فانطلقوا الى الأمام وهم يكبرون ويصيحون ويتسابقون نحو هدفهم واندفعوا بخيولهم وسط حشود الجند الأمامية وتغلغلوا بين صفوفهم، وحصلت مقتلة عظيمة ودار قتال شرس استبسل فيها المقاتلون من الجانبين بدرجات عالية.

في هذه الأثناء كانت الأوامر قد صدرت لوجبات فرسان أخرى بالانطلاق للالتفاف ومهاجمة جانبي قوات الحقول والبراري، ولم يضع الحجة كثيراً من الوقت، فبمجرد أن ابتعدت الوجبة الثانية وتوسطوا الحقول وهم يصيحون 'يا صاحب الزمان'، ويطلقون الرصاص من فوق صهوات جيادهم، أصدر أوامره لمجموعة فرسان أخرى بالانطلاق صوب جنود المدفعية البعيدة لمهاجمتهم وتخريب أسلحتهم ومعداتهم ومواقع مدفعيتهم.

وعلى ذات المنوال، فقد ظنّ ضباط المدفعية أنهم في منأى بعيد عن وصول هجمات أعدائهم اليهم، ولم يدركوا هول ما أُعد وخطط لهم ولا حجم المفاجئة التي كانت تنتظرهم، إلا بعدما اقتربت خيول الفرسان المهاجمين ودارت خلفهم لتهاجم مدافعهم وتخرب مرابضها وتسقط عشرات جنودهم بين قتيل وجريح.

في هذه الأثناء بدأت أصوات المصابين والجرحى من رجال الطرفين ترتفع عاليا تخالطها أصوات التكبير من حملة البنادق على أسطح وأبراج القلعة ومن أفواه الفرسان الذين انطلقوا من مكامنهم مثل ثعابين كبيرة ضخمة تسعى نحو فرائسها.

من أول لحظات إطلاق رجال أسوار القلعة لرصاصهم، صدرت الأوامر للجنود من حملة الطبول والأبواق بإطلاق صوت النفير العام، فلم يكن هناك فارق زمني حتى علت أصوات المدفعية وصيحات فرسان الجند وحملة البنادق بالرد على مصادر نيران المتسورين، وتقدم خيالة الجيش من الجهات البعيدة ليقوموا بهجوم ارتدادي عنيف، فجاء هذا الرد قاسياً مؤلماً على أصحاب القلعة وحراسها وأصيب وقتل العديد منهم وتهدمت أجزاء من حيطان القلعة وأسوارها وأبراجها من كثرة القنابل والدانات التي اطلقت عليها في دقائق قليلة، مما دفع الحراس للاحتماء خلف أسوارها السميكة، وما هي إلا ثوان قليلة حتى عادوا ليرفعوا رؤوسهم ويوجهوا فوهات بنادقهم لمعاودة اطلاق النار بعد أن أكملوا حشوها ثانية، وهكذا راح الطرفان يتبادلان الرصاص ويشتبكان بالسيوف ويلتحمون بالحراب بكل شراسة، وبقيت أجساد القتلى والجرحى تتساقط وسط ميادين القتال.

أما نساء القلعة، فكان لهن دور فعال أيضاً، فمنهن من انشغلن بجمع الأطفال في زوايا آمنة للاحتماء من تفجّر القنابل في ساحات القلعة وأرجائها، ومنهن من صعدن فوق أسوار القلعة يساعدن في نقل الذخيرة وتقديم الماء لرجالهن وكن لا ينقطعن عن الزغردة والنداء والصياح على رجالهن بأسمائهم يشجعونهم ويحذرونهم.

كانت خطة صدّ الهجوم تقضي بتفرق فرسان القلعة الى جماعات متباعدة أثناء هجومهم، وهذا ما أربك الجند وشتت انتباههم وشلّ حركتهم، فلم يجد الضباط بداً من إصدار أوامرهم بتكتل الجند في مجاميع جديدة ليحمي بعضهم بعضاً ولكي يحصلوا على بعض الوقت ليتمكنوا من إعادة حشو بنادقهم، بينما فضّل الكثير منهم ترك بنادقهم ومواجهة فرسان القلعة بالسيوف والرماح في اشتباكات مباشرة؛ وهكذا حصلت اشتباكات عنيفة ومقتلة دامية بين الفريقين أبدى فيها كل رجل منهم مواقف الشجاعة والبسالة النادرة.

صبّ القادة والضباط جلّ إهتمامهم في كيفية مواجهة مجاميع الفرسان الذين كانوا يتقافزون بين جموع الجند بين الحقول وهم يعالجونهم ويضربونهم بسيوفهم، وراحوا يصدرون الأوامر باستعادة تنظيم صفوف قواتهم؛ في هذه الأثناء كانت وجبة فرسان أخرى قد أكملت التفافها من خلف أسوار القلعة ووصلت خلف جموع الجند، وهذا ما أربك الضباط في كيفية معالجة هذا الموقف الحرج؛ فأمر قائدهم العام بتدخل قوات الاحتياط التي كانت تقف على مسافة غير بعيدة بانتظار أوامر الهجوم، وبمجرد أن هاجم فرسان القلعة جانب الجيش الخلفي وانشغلوا بالقتال معهم، إلتفت قوات جيش الاحتياط لتهاجمهم من خلفهم وتعمل فيهم تقتيلاً وذبحاً، وبهذا وجد فرسان القلعة أنفسهم بين كماشتين، الجند المحاصرون أمامهم، وقوات الاحتياط المهاجمة من خلفهم.

لكن عودة فرسان القلعة بعد إنجازهم لمهمة مهاجمة مرابض المدفعية وتخريبها لمشاركة إخوانهم، وما أبدوه من شجاعة فائقة في قتالهم لتخفيف الضغط على

أصحابهم من المجموعتين الأولى والثانية، زاد من عزيمة المجموعتين وتحديهم لفصائل الجيش وهم في وسطهم، وبهذا حصل اشتباك كبير ومقتلة بشعة بين جميع الأطراف تسبب بسقوط قتلى وجرحى كثيرين، امتلأت بهم أرض البراري والحقول.

في هذه الأثناء بدأت أنوار الصباح تنير أرض المعركة، وهذا ما أتاح لحراس القلعة مشاهدة معمعة المعارك الشرسة بشكل أوضح، وكيف كان قتال أصحابهم رائعاً باسلاً، لكنه كان كارثياً رهيباً، حيث شاهدوا أفضل قادتهم وفرسانهم قد سقطوا وما زالوا يتساقطون واحداً تلو الآخر في ساحة الوغى، فلقد كان غالبيتهم من القادة الشجعان والفرسان الأوفياء الأساسيون المعتمد عليهم في تحقيق النصر، ولم يكن بالإمكان تعويضهم وملىء أماكنهم؛ فكانوا يتساقطون فرادى وجماعات، بعضهم سقط أثناء معارك أول هجوم الفجر وبعضهم بعدما بزغت الشمس بأنوارها.

لم يوقف أو يخفف كثرة القتلى وأعداد الجرحى وتعالي صراخهم من أجيج نيران المعركة، فقادة الجيش كانوا مصرين على سحق المدافعين بعدما هاجموهم وكسر شوكة مقدمة جيوشهم وشتتوا شمل صفوفهم في الحقول والبراري ودمروا مرابض مدفعيتهم، فراحوا يدفعون بأفواج الجند واحدة تلو الأخرى غير مبالين بحجم الخسائر أو حاجة الجنود الى الراحة أو تناول طعام أو إرواء عطش، فلقد أصروا على احراز النصر بكل وسيلة واستمروا يشجعون جنودهم ويعدونهم بقرب تحقيق النصر المؤكد إذا استمروا بهذا الشكل من القتال والمجالدة.

لم يتصور أحد من قادة الفريقين استمرار هذه المعركة الشرسة الدامية لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال بطولها دون توقف، وعلى الخصوص قادة الجيش الذين

توقعوا مع كثرة جندهم وعتادهم وسلاحهم، تحقيق نصر سريع على هؤلاء المدنيين وطلاب العلوم الدينية. إلا ان المعارك كانت مستمرة ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة، أظهر فيها رجال الجانبين منتهى الشجاعة والإقدام رغم انتشار جثث القتلى والجرحى في جميع أرجاء أرض المعركة، لقد كانت الأشلاء ممددة على الحشائش وفوق الصخور وبجانب المدافع وحولها وفي الحقول ووسط الخنادق وحوافها وداخل المتاريس وفي غمرة المياه وتحت أسوار القلعة وعلى أبراجها وفي ساحاتها، ولم ينج من الموت حتى النساء والأطفال، فأينما كان يقع بصر الناظر يجد جثثاً وأجساد مكومة هامدة باردة تجثم وسط برك من الدماء. ومع ذلك بقي أصحاب القلعة يدافعون ويقاومون هجوم أعدائهم العنيف ببسالة رائعة ويشنوا هجمات متوالية بتوجيهات الحجة المباشرة؛ ولما اتضح للحجة ومعاونوه كثرة قوات الجيش ووفرة أعدادهم المتفوقة وحاجة أتباعه لمزيد من المعونة والاسناد، أمر قسماً ممن بقي لحراسة القلعة بالخروج والاسراع لمد يد المساعدة لرفاقهم، فهبّوا يتراكضون مسرعين بين راكب وراجل لتلبية الأمر وتنفيذه ودخلوا آتون النزال من أقرب نقاط المواجهة أمامهم.

بعدما انقضت تلك الأيام الثلاثة بلياليها من القتال الشرس العنيف المتواصل بين هجوم مستميت لأولئك، ودفاع باسل لهؤلاء، وتبادل الأدوار في الدفاع والهجوم والكرّ والفرّ. أدرك قادة الجيش أن لا كثرة قواتهم ولا أسلحتهم المتفوقة ولا تدريباتهم المتميزة ولا ما أطلق من كثرة قنابل مدافعهم على أسوار القلعة وأبراجها ومن في داخلها، قد أفلح في إخضاع هؤلاء الأصحاب أو كسر شوكة

عزيمتهم واستسلامهم أو تراجعهم، فلم يثنهم قصف المدافع الذي غمر قلعتهم ولا تساقط القنابل المستمرة فوق رؤوسهم في كسر قوة اصرارهم أو ثنيّ شدة عزيمتهم، ولم يؤثر عليهم قلة النوم ولا الجوع أو التعب ولا الارهاق من تكرار هجماتهم واحدة تلو الأخرى وهم محاطون وسط أعداءهم غير مبالين بما يواجهونه من أخطار الغارات الشرسة والأسلحة المتفوقة؛ فلقد كانوا لا ينقطعون يرددون بأعلى أصواتهم أثناء هجماتهم، صيحات 'يا صاحب الزمان' ويندفعون ليتغلغلوا كالسهام في قلب جموع حشود الجند بذلك التأثير السحري الذي تلقيه فيهم تلك الصيحة العجيبة ويتمكنون في كل مرة من تشتيت جموع أعدائهم وتفريقهم وتخريب مدافعهم.

***

شاهد عيان:

ذكر أحد زوار خرائب مدينة زنجان بعد عدة سنوات، أنه شاهد ما خلفته تلك المعارك الشرسة وذلك القتال العنيف من أطلال الأحياء والحارات المدمرة بالكامل الى درجة لا يمكن إعادة إصلاحها أو ترميمها بسبب دمارها الشامل. وروى بعض من شاركوا في مآسي تلك المعارك كذلك، أن أتباع الحجة كانوا يصعدون الى شرفات القلعة وينزلون عنها خلال ذروة القتال وهم يحملون مدافعهم القليلة الثقيلة بأيديهم العارية رغم شدة حرارتها العالية لينقلوها من موقع الى موقع ومن جانب الى آخر لمواجهة ثقل هجمات كتائب الجيوش كلما تغير مسارها وزاد ثقلها، مع أن أسطح بعض أجزاء القلعة الداخلية كانت رخوة غير متماسكة لا تتحمل أثقال مثل هذه الاعداد الكبيرة من الرجال والمدافع، فلقد كانت مبنية من الطين المفخور ومدعمة

بالأخشاب العتيقة، وكانت تتهاوى متهدمة بمن عليها من ثقل المدافع وكثرة أعداد حامليها وفي بعض المواضع تتحول الى أكوام من التراب والأعمدة والغبار المتصاعد بمجرد زيادة الثقل عليها، مما يدفع بالرجال والنساء إلى رفع هذه المدافع الثقيلة بأيديهم العارية ويضطرهم الى دعم أرضية الأسطح بجسور أعمدة خشبية أخرى جديدة. فإذا ما اقترب العدو وزاد خطره، تجمهروا حول المدافع بكل حماس ليمدوا أيديهم جميعا لرفعها وتثبيتها وتصويبها وتلقيمها رغم شدة حرارتها التي كانت تسلخ راحة أكفّهم، وعندما كان يتساقط بعض حاملوها برصاص المهاجمين وقنابلهم، كان يتبارى زملائهم بالمئات مسرعين لنيل شرف استبدال مواقعهم.

*****

كانت كثرة غارات فرسان القلعة واستمرارها ونجاحها في مواقع عديدة، قد أوهنت قلوب أعداءهم وملأتها بالخيبة واليأس وأقنعتهم بعدم جدوى هجماتهم وعبث استمرار جمودهم ومحاولاتهم وفشل مساعيهم في تحقيق أي نصر حقيقي، حتى أقروا أخيراً بعد مرور أكثر من 72 ساعة من القتال المميت المستمر بالعجز والخيبة عن تحقيق أي نصر. لقد كانوا تواقين لزف خبر الانتصار الكبير الى مليكهم ورئيس وزراءهم.

انتهت هذه المعركة الشرسة الدامية المنهكة للقوى، وعاد رجال كل جانب الى مواقعهم، ومع ذلك بقيت المعارك مستمرة لشهور عديدة رغم اختلاف درجاتها، فمرة تكون بذات الحدّة وأخرى تخف قليلاً، وبقيت الامدادات تأتي الى الطرفين لتزيد من اشتعال نيران لهيبها، واعترف قائدهم 'صدر الدولة' وكبار ضباطه في النهاية،

أنهم وبعد مرور تسعة أشهر من المعارك الدامية والقتال الشرس والمحاربة المستمرة والاستعدادات الحثيثة وتوالي ورود امدادات السلاح والعتاد وتعزيزات الراجلة والفرسان والمدافع التي لم تكن تنقطع، اعترفوا بالعجز التام عن تحقيق أي نصر، ولم يتبقَ من جنود الفوجين الذين أحضرهم 'صدر الدولة' معه وتحت قيادته سوى ثلاثين رجلاً من الجرحى والعاجزين والمصابين غير القادرين على فعل أي شيء، بل كانوا هم أنفسهم بأمس الحاجة لمن يعتني بهم ويضمّد جراحهم ويطبب إصاباتهم؛ أما بقية أفواج الجند والفرسان لبقية الضباط والقادة، فلم يكن وضعهم بأفضل مما أصاب ويعاني منه صدر الدولة وجنوده.

رغم تناقص أعداد الجنود وقلة حيلتهم ولجوئهم الى الهدوء وامتناعهم عن المهاجمة بسبب ما أصابهم من خسائر كبيرة وفرار البعض منهم، إلا أن تلك الحالة المزرية لم تكن لتغري فرسان القلعة وحراسها للانقضاض على مثل هذه الفريسة السهلة للفتك بها، فلم يكونوا يبدأون القتال ويهاجمون، إلا إذا بدأ عدوهم ذلك.

وإذ غمرت 'صدر الدولة' مظاهر المذلة وحالات اليأس ووجد نفسه وحيداً بين بقية جنده الذين قتل غالبيتهم، اضطر أخيراً للاعتراف برسالة وجهها الى رئيس الوزراء رداً على سؤال الأخير عن تطورات المعارك المستمرة ونتائجها، واعترف في رسالته بعجزه عن إخضاع تلك الروح التي يحاربه بها خصومه وصعوبة الانتصار عليهم. فما كان من رئيس الوزراء الذي زادت هذه الرسالة الجوابية من شدة حنقه وغضبه، إلا أن عاقب صدر الدولة بإنزال رتبته العسكرية، إضافة الى حصوله على توبيخ شديد اللهجة من مليكه. وبهذا انسحب تاركاً ساحة المعركة وعاد الى منزله

بعدما حلّ به الخزي والعار وضاعت آماله في نيل الشهرة والأمجاد وتبددت أحلامه في ترقي مناصب عسكرية عالية بسبب ما ناله من كثرة الهزائم الشنيعة وخسارة كامل قواته. تلك الآمال والأوهام التي كان يمنّي نفسه بها بشغف كبير.

إغتنم أهالي زنجان ممن لم يشاركوا أو يتطوعوا في خوض تلك المعارك، فرصة استمرار شهور الحرب وطول فترتها، فانشغلوا في التجارة والبيع والشراء وتمشية عجلة الحياة العامة واستغلال فرص تلبية حاجات الجنود وطلبات ضباطهم، فاغتنى العديد من الكسبة والباعة المتجولون وأصحاب المحلات والدكاكين الصغيرة وأصبح بعضهم تجاراً أثرياء، رغم رحى المعارك الدائرة وأصوات المدافع العالية التي كانت تسمع بوضوح داخل حارات المدينة وأزقتها وتوالي مشاهد أعداد القتلى وحالات المصابين والجرحى وهم يعودون مثخنين بالجراح وملطخين ببقع الطين يئنون فوق عربات خشبية تجرها ثيران وبغال منهكة القوى وبينهم الكثير ممن ماتوا قبل وصولهم الى ذويهم وقراهم ومناطقهم.

إلا أنه مع مرور الأشهر وتوالي أيامها واتضاح نتائج معارك الجيوش الفاشلة وكثرة خسائرهم المتتالية، استبد الخوف والرعب في قلوب أهالي زنجان بسبب هذه الهزائم المخجلة وانتبهوا لما يهدد رخاء حياتهم، وهذا ما أدى الى انخفاض أعداد المستعدين منهم للمخاطرة بحياتهم والتطوع للاشتراك في معارك خاسرة غير مجدية حينما كان يحاول رجال الدين دفعهم للانضمام والتطوع تحت قيادة ضباط فاشلين. فكم من عائلة تركت بيوتها وحملت ما استطاعت عليه وغادرت دون رجعة لتستقر في مناطق ومدن أخرى بعد أن فقدت أحد رجالها. أما من لم يتمكنوا من المغادرة أو

الفرار، فكانت الأمهات والزوجات والأخوات يشجعن رجالهن على ترك المدينة والابتعاد للعيش في مدن أو قرى أخرى حتى تنتهي المعارك ويحل السلام.

وأخيراً وبعد شهور طوال، هدأ صخب المعارك وصمتت أصوات المدافع وسكنت قرقعة البنادق لعدة أيام بين المتحاربين إلا من بعض المناوشات الفردية والصغيرة، فلقد بات واضحاً هزيمة الجيش وخسارته لجميع المعارك التي خاضها، ولم تعد الاشتباكات تتجدد أو هجمات تشن على المحاصرين إلا من الأفواج الواصلة حديثاً من التي كانت ترسل تباعاً من طهران وغيرها من بقية المدن ممن لم يكن لديهم علماً حقيقياً بنتائج ما فات خبره من معارك دامية، حيث كانوا يجبرون على خوض أولى معاركهم بتشجيعات وآمال موهومة، وكانوا بمجرد أن يصل علمهم خبر مصير الجيوش السابقة ونتائج معاركها ويسمعون بأهوالها، يتسلل الخوف واليأس الى قلوبهم، فيخوضون معاركهم وهم مجبرين تحت تهديد قادتهم بتحمل نتائج عصيان الأوامر وتقديمهم الى المحاكم العسكرية؛ ومع ذلك، لم يكن مصيرهم أفضل من سابقيهم، فلقد ذاقوا طعم الخسائر والفشل وقتل أغلبهم.

وبينما كان أهالي المدينة يتنفعون من استمرار مجيء وتكاثر أعداد الجند والمتطوعين وخاصة طبقة التجار والكسبة والباعة المتجولين بسبب استمرار وصول جموع القوات إلى مدينتهم. كان أصحاب الحجة يواجهون نقصاً كبيراً بالمؤونة والعتاد والغذاء باستمرار ويعانون مع عوائلهم من العوز والجوع الشديد داخل أسوار قلعتهم وبيوتهم، ولم يتبقَ لهم أمل في الحصول على القوت الضروري الذي كانوا يحتاجون اليه بشدة، إلا من خلال محاولات بعض المغامرين منهم ممن كانوا يتجاسرون في

التسلل تحت جنح ظلمات الليالي لشراء بعض مواد الطعام القليلة والعودة بها الى بيوتهم أو الى داخل القلعة رغم إلقاء القبض على بعضهم وقتلهم.

ومن ناحية اخرى، كانت بعض نسوة المدينة والقرى المجاورة يحاولن التقرب من مساكن أصحاب الحجة وأسوار القلعة ومحيطها للاستفادة والتنفع بحجج وأعذار مختلفة كي يبعن ما معهن من مواد الطعام والخضار بأثمان باهظة؛ ومع ذلك فغالباً ما كان أفراد الجيش يمنعوهن وغيرهن ويقطعون عليهن سبيل التقرب من أسوار القلعة أو الوصول الى أطراف المدينة لوقف سبل وصول المؤونة وقطع الامدادات عن المحاصرين.

ومع أن المحاصَرين كانوا في شدة الجوع والعوز والانهاك، ومعرضون لهجمات فجائية من قبل الجيوش المحيطة بهم باستمرار، إلا أنهم ثبتوا في مواقعهم ببسالة وشجاعة متناهية في الدفاع عن مساكنهم وعن القلعة بعزم راسخ لا ينثني. وإذ تسلحوا بالأمل الذي لا يفتر في صد أي عدوان جديد، نجحوا في تقوية المتاريس القديمة وإقامة أخرى جديدة حتى وصلت أعدادها الى ثمانية وعشرين متراساً، أوكلوا كل واحد منها لحماية مجموعة مكونة من تسعة عشر رجلاً من الأتباع، ووضعوا تسعة عشر حارساً على كل منها، فكان من جملة وظائفهم مراقبة تحركات العدو والتبليغ عنها فوراً.

وما كان يثير سخريتهم واستهزائهم صوت المنادي الجهوري الذي دأب الأعداء على ارساله الى جوار جدران القلعة ومنازل المدينة لإقناع سكانها بهجر الحجّة وترك أمره والخروج للانضمام الى صفوف الجيش، وكان يصيح بأعلى صوته

وينادي: 'إن حاكم الإقليم وقائد الجيش مستعدان للصفح عن كل من يقرر منكم ترك منزله والخروج من القلعة والارتداد عن دينه والعودة لدين الاسلام، ولقد وعد الحاكم بتسهيل أمر مروره بسلام والعودة إلى قريته وبيته وعائلته؛ والرجل الذي يفعل ذلك منكم، سيكافئه الملك شخصياً وينعم عليه بالرتب النبيلة فضلاً عن العطايا والهبات التي سيهديها له. ولقد أقسم الشاه ونائبه على ذلك بشرفهما ولن يحنثا في يمينهما'. فكان المحاصَرون بالإجماع، يقابلون هذا النداء بالرفض والاستهزاء والاحتقار.

***

بقيت الاشتباكات مستمرة ولم تتوقف بين الطرفين، وبقيت تجري بين كرّ وفرّ، وكانت إمدادات الرجال والفرسان تتوالى تباعاً لتنضم الى المدافعين عن القلعة والبيوت القريبة المناصرة لها، مستغلة جنح ظلام الليالي بعدما انتشرت أخبار معارك زنجان في طول البلاد وعرضها. وفي المقابل، كانت كتائب الجند وارتال المدفعية والفرسان والمتطوعين تأتي تباعاً وبانتظام من جميع معسكرات الجيوش ومن مختلف أنحاء المملكة لتنضم الى معسكرات الجيش وهي تمشي بانتظام وترتيب تحت قرع ضربات الطبول وعزف آلات الموسيقى لتعوّض خسائر الجيش وتسد فجوات فراغاته.

حدث ذات يوم أن أصدر الحجة أمراً الى حراس القلعة من أتباعه الواقفين فوق أسوارها واستحكاماتها وأبراجها، بتنفيذ إحدى وصايا السيد 'الباب' التي وصلته أخيراً، وهو ترديد دعاء إلهي معين بأعلى أصواتهم، فكان الدعاء كالتالي:

"الله أكبر، الله أعظم، الله أجمل، الله أبهى، الله أطهر". ويردد تسع عشرة مرة عند منتصف كل ليلة.

وبمجرد أن حلّ موعد منتصف أول ليلة، انضم كثير من سكان القلعة والمدافعين الى الحراس ووقفوا خلف الأسوار وبدأوا بتكرار الدعاء بصوت واحد. فشق صياحهم سكون الليل وكان من الشدة والعنف لدرجة أيقظت أعداءهم من غفوتهم وهم في حالة من الفزع والرعب الشديدين، فما كان منهم إلا أن أطلقوا أرجلهم للريح هاربين مرتعبين تاركين أسلحتهم وأشيائهم مبعثرة خلفهم وخيامهم مهجورة وبحالة شديدة من الفوضى وهم حفاة شبه عراة بملابس نومهم. فأسرعوا إلى جوار مسكن الحاكم ليحيطوا به يطلبون اللجوء والحماية، أما بعضهم فقد اقتحم أبواب منازل أهالي المدينة طالبين منهم الدخالة؛ كما أيقظ صوت هذا الدعاء الشديد من بقي من سكان مدينة زنجان واستولى الخوف على الكثير منهم حتى أن بعضهم حمل أطفاله وما خفّ حمله من المتاع على عجل وهربوا من بيوتهم ليلتجئوا إلى بيوت ومزارع القرى المجاورة؛ وظن الكثير منهم أن هذه الصيحة العنيفة، ما هي إلا علامة على مجيء يوم القيامة، بينما اعتبرها آخرون إشارة من الحجة للقيام بهجوم مفاجيء شامل جديد عليهم، بنحو أشد هولاً مما خبروه سابقاً.

لما سمع الحجة بما حدث من اضطراب وفوضى بين جيش الأعداء وسكان المدينة جراء ذلك النداء المزلزل، عقب على ذلك بقوله: 'فكيف يكون الحال لو كان سيدي قد صرح لي أن أعلن الجهاد على هؤلاء الكفار الجبناء! فقد أمرني أن أثبت في قلوب الناس أصول الايمان والمحبة والإحسان السامية وأن نمتنع عن كل

أشكال العنف الذي لا توجبها الضرورة. فغرضي وغرض أصحابي هو خدمة مليكنا بإخلاص وولاء وتمني الخير لرعيته ومملكته. ولو اتبعت مثال أفعال رجال الدين في زنجان، لكنت بقيت طيلة أيام حياتي، معبود هؤلاء العامة البسطاء، لكني لن أقبل أبداً أن أبدل طاعتي الدائمة وولائي لأمر الله، بكنوز الأرض كلها ولا بأبهة الدنيا وزخارفها'.

لم تمح ذكرى تلك الليلة المخيفة من أذهان الذين جربوا هولها ورعبها وما أصاب الناس من جراءها؛ وذكر بعض شهود العيان ومن كانوا موجودين في وقتها، الفرق الشاسع بين الجلبة والاضطراب والفوضى التي حصلت في معسكر العدو المتخاذل وأهل مدينة زنجان، وبين حالة الخشوع والتعبد التي كان عليها أهل القلعة ومقاتليها. فبينما كان هؤلاء يذكرون اسم الله ويطلبون هدايته ورحمته، كان خصومهم من الضباط والجنود منغمسين في المتعة واللهو وأعمال الفجور والشهوات الدنيئة داخل معسكرهم.

ورغم الإرهاق واللغب وما يفرضه الحصار من شدة جوع ومعاناة سهر، ويقظة وتحفّز دائم وعمل مستمر، إلا أن سكان القلعة استمروا يؤدون صلوات المساء وتلاوة الترنيمات التي أمرهم بترديدها الحجة نيابة عن 'الباب'. أما معسكرات العدو فكانت تدوي بالمقابل في نفس الساعات بأصوات الضحك واللهو الصاخب الممزوج بألفاظ الشتائم والسباب.

في تلك الليلة حينما دوى صوت ذلك النداء الرهيب ليملأ السماء بالأصداء، سُمعت أصوات كؤوس الخمر وهي تتكسر على الأرض بعدما فزع الضباط من

شدتها وراح كلٌ منهم يرمي ما في يديه ليبحث بعجلة وارتباك عن طريق للفرار، فكانوا يسابقون جنودهم وهم حفاة نصف عراة في الهروب وكأنهم صعقوا من هول تلك الصيحة المدوّية، وانقلبت موائد القمار وتناثرت أوراق اللعب وتبعثرت أوراق النقد وقطع النقود في خضم ما نجم عن ذلك الهلع الشديد ومحاولات الفرار الفجائية، وهرب بعضهم إلى البرية أنصاف عراة مكشوفي الرؤوس، بينما أسرع بعضهم الآخر إلى منازل رجال الدين يطرقون أبواب بيوتهم بكل عنف ليوقظوهم من عزّ نومهم ويسمعوهم بذيء الشتائم والسباب، فما كان من هؤلاء المشدوهين أيضاً، والنوم ما زال يغمض جفونهم وهم في غمرة الفزع والذهول والتعجب، إلا أن أخذ بعضهم يلعن بعض بأبشع الألفاظ ويتبادلون اللوائم والتوبيخات وينسب أحدهم للآخر أسباب كل ما يحصل من موت ودمار وخسائر ويلعنون من تسبب في إشعال هذه الفتنة الهوجاء التي لم يكن لها ما يبررها.

بعد أن هدأت أصوات الدعاء داخل القلعة، وعاد سكون الليل يخيّم على أرجاء المنطقة، علم العدو بالغرض المقصود من تلك الصيحة، وأنها لم تكن إلا مجرد دعاء الى الله لطلب التأييد، فبدأوا بالعودة إلى مواقعهم مطمئنين من عدم وجود خطر هجوم مفاجئ يتهددهم، لكن المذلة الكبيرة جراء تجربتهم هذه بقيت تظلل هاماتهم ويتذكرها من بقي منهم على قيد الحياة.

عندما حان موعد الدعاء التالي في منتصف الليلة التالية، لم يفاجئ ارتفاع صداه العالي أهل المدينة ولا جنود المعسكر أو ضباطه مرة ثانية، رغم كونه بذات قوة الليلة السابقة، فلقد كانوا طوال اليوم يتكهنون فيما إذا سيعاود أهل القلعة

الدعاء حسب موعد الليلة الماضية. لذلك ارتفعت أصواتهم بالضحك والتمسخر من بعضهم حينما علا صوت الدعاء مرة أخرى، واشرأبت الأعناق تتطاول والعيون ترنو بعيداً تتفحص حصون القلعة ومحيطها للتأكد من عدم مرافقة الدعاء هجوما مباغتاً آخر من أعدائهم.

وهكذا استمر أصحاب القلعة في ترديد دعائهم في منتصف كل ليلة، رغم استمرار المعارك والقتال ضد أعدائهم، وبقي تأثيره مخيفاً مفزعاً لقلوب بعض الجنود، واستمروا قلقين من مغبة مصاحبته بهجوم مفاجئ، وهذا ما زاد من مستوى اليقظة والحذر والاستعداد داخل المعسكر أثناء الليل.

ولوقف هذا السبب المقلق لمنام عامة جند المعسكرات وضباطه، ولوقف تكراره كل ليلة، أمر الضباط عدداً من القناصة بمحاولة إطلاق الرصاص على رؤوس الدعاة الواقفين فوق أسوار القلعة وبروجها، من أي جمة تسمع منها أصواتهم، ومحاولة الاستدلال عليهم بأي وسيلة وقتلهم.

وبالفعل نجحت الخطة بشكل أو بآخر، حيث قتل عدد من الأصحاب باصابات مباشرة في الرؤوس. لكن تلك الخسائر رغم فاجعتها المتكررة، لم تُعِق أصحاب الحجة من الاستمرار برفع أصواتهم بحماسة أكبر يرافقها تهليل وتكبير رغم ما كان ينتابهم من أخطار جمّة بسبب تلاوة الأدعية والترانيم. وكلما سقط عدد منهم، كانت أصواتهم وصيحاتهم تزداد ارتفاعاً وتجلجلاً. وأدرك ضباط الجيش في المعسكرات ورجال الدين في المدينة أن خطر الموت لا يردع هؤلاء المدافعين ولا يمنعهم من أداء ما يعتقدونه أنبل وأقوى تذكير بمحبوبهم السيد 'الباب'.

التماسات الحجة وأصحابه

بعدما طال أمد الحرب واستمر اشتداد المعارك وتوالي مجيء كتائب الجيوش وزيادة سعة مساحة حلقات المدافع حول القلعة وصفوفها، إضافة الى ملل سكان المدينة وخوفهم مما يجري واستمرار هروبهم وهجرتهم وترك مساكنهم وانقلاب هدوء المنطقة والمدينة الى صخب الحرب وضوضاء القتال وكثرة ما ينقل من نعوش القتلى وعربات الجرحى وازدياد مجاميع أعداد الأرامل والأيتام، إضافة الى استمرار عمليات تعزيز وبناء وتصليح ما يتهدم من حيطان القلعة وأسوارها وللنقص الكبير في مؤونة المحاصرين وعتادهم وكثرة جرحاهم وصعوبة علاجهم وازياد الحاجة الى وفرة الغذاء والطعام؛ قرر الحجة إرسال خطاب مباشر إلى الملك ناصر الدين شاه، يشرح فيه حقيقة الأوضاع وما يجري وأسبابه، ومما كتبه: 'إن أتباع جلالتك الشاهانية يعتبرونك الحاكم الدنيوي والمحافظ الأعظم على الدين. وهم يلجأون إليك طلباً للعدل، وينظرون إليك بأنك المدافع الأكبر لحقوقهم. ومسألتنا أولاً تخص رجال الدين في زنجان فقط، ولم تقحم حكومتكم ولا رعيتكم في الأمر مطلقاً. وقد دعاني سلفكم الملك محمد شاه إلى طهران وأمرني أن أبين دعاوى ديني، وأقتنع المرحوم تماماً وامتدح جهودي. وعمدت إلى ترك موطني والإقامة في طهران، ولم يكن لي مقصد سوى إخماد تلك الضجة التي أثارها رجال الدين والمجتهدين حول شخصي وإطفاء النيران التي أشعلها أهل السوء. ومع أني كنت حراً في العودة إلى موطني، إلا أني فضلت البقاء في العاصمة متكلاً بالكامل على عدل مليكي المرحوم. وفي ابتداء حكمكم، شك رئيس الوزراء بأنني خائن ومن مناصري أصحاب ملحمة مازندران

التي حدثت قبل عدة شهور وعزم على قتلي. ولما لم أجد أحداً في طهران قادراً على حمايتي، قررت دفاعاً عن نفسي، اللجوء الى زنجان حيث عدت إلى بذل مجهوداتي لترويج مصالح الإسلام الحقة. وأثناء اشتغالي بذلك قام 'مجد الدولة' ضدي، وكثيراً ما طلبت منه العدل والإنصاف في أمري، إلا أنه لم يلتفت لذلك ولم يعر له أي انتباه، وما زاد الأمر سوءاً، تحريض علماء زنجان له، وبسبب تملقهم إليه عزم إلقاء القبض عليّ وأصدر أمره بذلك. فتدخل أصحابي بالحسنى واجتهدوا في اقناعه للتخلي عنه قراره، لكنه استمر على إثارة الناس ضدي والسعي لالقاء القبض عليّ، والذين بدورهم تصرفوا بطريقة غير حكيمة أوصلتنا لما نحن فيه. وللآن امتنعتم جلالتكم عن مد يد عونكم الكريمة لصالحنا نحن الأبرياء الذين وقعنا فريسة لكل أنواع القسوة والوحشية، واجتهد أعداؤنا في تصوير الأمر في أعين جلالتكم وكأنه مؤامرة ضد السلطة المخولة لكم، مع أننا لا نضمر في قلوبنا سوءاً أو خيانة كما يعرف ذلك كل منصف بصير وأن لا غرض لنا إلا تقدم مصالح حكومتكم ومصالح العباد، وإني ونخبة من أصحابي مستعدون للحضور إلى طهران للاجتماع مع خصومنا في محضركم واثبات صحة أمرنا.'

*****

لم يكتف الحجة بعريضته الشخصية هذه، بل طلب من كبار أصحابه أيضاً تحرير مثل هذا الرجاء والإلحاح في طلب العدل والإنصاف من الشاه.

بعدما اكتمل كتابة جميع الإلتماسات، أختير أحد الرجال الشجعان لايصال مجموعة العرائض الى العاصمة طهران، ورغم توخيه غاية الحذر عند خروجه من

القلعة متستراً تحت جنح الظلام، إلا أنه ما كاد يبتعد عن المدينة قليلاً حتى فطنت اليه قوات الحكومة المحاصرة للقلعة وألقت القبض عليه وأقتيد مسلسلاً للمثول أمام الحاكم. وإذ غضب الحاكم كثيراً من تدبير خصومه ومحاولة الاتصال بالملك مباشرة، وخوفاً من افتضاح ترتيباته وتدابيره، أمر بقتل المبعوث فوراً، ثم قام بتمزيق العرائض وإحراقها وأمر بكتابة مجموعة أخرى بدلاً عنها، شحنها بالشتائم وملأها بالإهانات للملك وسياسته، ووقعها بإمضاءات مزورة للحجة وأصحابه، ثم أرسلها إلى طهران.



ملك إيران ناصر الدين شاه في أول شبابه وقت استلام السلطة

حالما وصلت العرائض المزورة الى بلاط الشاه وأطلعه الوزراء على ما جاء فيها، حتى انتفخت أوداجه واستبد به غضب شديد، فنادى من فوره على رئيس الوزراء ليصدر له أمراً بإرسال فوجين قويين جديدين في الحال، مجهزين بما يكفي من الرجال والمدافع والسلاح والذخيرة والمؤونة إلى زنجان، وأمر أن يعاملوا جميع أتباع الحجة وكل من يسكن القلعة ومن يساندهم من أهالي المدينة بكل قسوة وعنف وأن يفنيهم عن بكرة أبيهم ولا يبقي منهم على قيد الحياة أحداً، رجلاً كان أم امرأة، وأمرهم بهدم القلعة حجراً حجر على رؤوس الجميع.

لقد كان أمر الفرمان الملكي واضحاً تماماً بفناء جميع البابيين.

في تلك الأثناء، انتشرت أخبار إعدام السيد علي محمد 'الباب' صاحب الديانة البابية ومؤسسها، ووصلت لمسامع أهل القلعة المحاصرين وأهالي بيوت أصحابهم القريبة بواسطة السيد حسن، أخ كاتب الوحي الذي وصل من آذربيجان حاملاً هذا الخبر المفجع. فزاد ذلك من غمّ وحزن البابيين المحاصرين كثيراً، بينما قابله الأعداء المحيطون بهم، بالفرح والتهليل وارتفعت أصواتهم بالابتهاج والانبساط وأخذوا يزيدون من استهزاءهم وسخريتهم من أتباع الحجة ومجهوداتهم اليائسة في الدفاع والقتال، وكانوا ينادون عليهم بغطرسة وتكبر: 'لماذا تريدون تضحية نفوسكم؟ فإن الذي تريدون الموت في سبيله قد وقع فريسة لرصاص جنود المملكة المنتصرة، وفقد جسده واختفى وجوده من بين أعدائه وأحبائه. فلماذا تصرون على العناد ومواصلة القتال! في حين أن كلمة نكران واحدة منكم تكفي لخلاصكم من جميع آلامكم؟'

ورغم كل المساعي لزعزعة ثقة أتباع الحجة المنكوبين والتركيز على تثبيط عزيمتهم، إلا أن أعدائهم عجزوا عن إقناع أضعف شخص بينهم لترك أصحابه وهجر القلعة أو يرتد عن دينه. بل على العكس، زادت تلك الأخبار المفجعة من عزيمة المحاصَرين وإصرارهم في الدفاع عن أنفسهم واستطاعوا معرفة مقدار حقد وكراهية أعدائهم وماذا سيحصل لهم إذا وضعوا السلاح واستسلموا لهم.

***



تقي خان رئيس وزراء ناصر الدين شاه 1848-1851م

كان رئيس الوزراء تقي خان، الملقب 'أمير النظام'، قد ولد في سنة 1807م، وبهذا يكون عمره أثناء تلك المعارك أكثر من ضعف عمر الملك ناصر الدين شاه المولود سنة 1831م. كان هذا الوزير ذو شخصية تسلطية قوية قاسية اعتمد كثيراً على قراراته الفردية ليحكم البلاد بيد من حديد واتخذ من القوة والقسوة سبيلاً لإدارة شؤون المملكة ليوقف ما تشهده المملكة من أحوالها المضطربة خلال تلك الفترة حيث كثرت الفوضى والحروب والثورات، وكان جاداً في السعي على تحريض مليكه على الدوام لارسال مزيداً من المقاتلين والتعزيزات العسكرية الإضافية إلى الجيوش المحاصرة لأهالي قلعة زنجان، مما دفع بالملك الى إتخاذ قرار إرسال أحد كبار قادة الجيش في المملكة، وإسمه محمد خان، ويلقب 'الأمير تومان'، على رأس خمسة أفواج كبيرة من الخيالة مجهزة بعدد من المدافع وكميات كبيرة من الأسلحة والمؤن لتدمير القلعة، ولم ينس أن يتضمن أمره الملكي قراره الحاسم بإهلاك جميع سكانها. ثم ارسل فرمانه الواضح بهذه التعليمات.

حدث أن كانت هناك فترة هدوء بين الطرفين وهدنة غير معلنة اسيتمرت لمدة عشرين يوماً، أوقف فيها القتال والاشتباكات والأعمال العدائية. لكن تعزيزات قوات الحكومة المساندة كانت تصل متوالية إلى زنجان. فدخل المدينة أيضاً عزيز خان المُكْري، المسمى "سردار الكل"، وكان متجهاً في طريقه لتنفيذ مهمة حربية إلى إيراوان. ومن مبادرات هذا الرجل، أن نجح هذا الرجل في فتح باباً للتفاوض مع الحجة أناب عنه فيها مضيفه السيد 'عليخان' الذي سكن بيته للقيام بنقل الرسائل فيما بينهما.



صورة لجنود إحدى وحدات هجانة الجمال في الجيش القاجاري و كان لها دور كبير في جنوب إيران

وقد حكى عليخان لسردار لاحقاً، أحوال مقابلته المؤثرة مع الحجة، وسرد ما حصل عليه من معلومات مهمة، حينما سأل الحجة عن مقاصد وأغراض المحاصَرين وأهدافهم. فنقل عليخان عن الحجة قوله: 'إنه لو امتنعت الحكومة عن إجابة طلبي، فما أريده هو أن تسمح لي بالرحيل وعائلتي إلى مكان خارج حدود هذه البلاد. فإذا لم تقبل حتى هذا الطلب، فنحن مضطرون للدفاع عن أنفسنا'.

أكد القائد "سردار الكل" بعد انتهاء لقاءات مضيفة المتكررة مع الحجة، بضرورة ابلاغه عن نيّته عمل ما في وسعه لإقناع أرباب السلطة في طهران في إيجاد حل سريع لهذه المسألة المستعصية.

لكن الرياح لم تجر بما تشتهي السَفن، فقد حدث أمر طارئ قطع سبيل التفاوض بين الحجة والسردار وعطل مساعيها الحميدة، حيث يبدو أن أخبارها قد وصلت الى علم رئيس الوزراء بشكل من الأشكال. فما كاد المفاوض عليخان ينهي

آخر جولة من مفاوضاته ويعود إلى منزله، حتى وصل مبعوث رئيس الوزراء إلى القائد عزيز خان فجأة، جاء خصيصاً للقبض على المفاوض عليخان ونقله مخفوراً إلى العاصمة طهران. ولشدة خوف المفاوض ولإبعاد كل تهمة عن نفسه وحمايتها، شرع أمام المأمور ومن معه بسّب الحجة وشتمه وإنكار أي علاقة به أو بدينه. وبهذه الوسيلة فقط تمكّن من تخليص نفسه والتملص من الخطر الذي كان يهدد حياته.

الفصل الخامس

' زينب '

من الدلائل الأخرى على روح الانقطاع العالية التي حركت هؤلاء الأصحاب الأبطال الشجعان، قيام شابة قروية أميّة بسيطة لا تقرأ ولا تكتب أمضت سنين طفولتها وشبابها في أعمال الزراعة ورعاية المواشي. كانت شابة قوية الجسم تعودت على مشاق الأعمال المرهقة نيابة عن والديها العجوزين، فلقد اختارت أن تكون من بين النساء والأطفال المحاصرين الذين انضموا للدفاع عن القلعة ومنازل أصحاب الحجة بعدما كانت تصلها أخبار المعارك وشراستها وبعدما شاهدت حاجة المحاصرين الملحّة الى المساعدة والمعونة.

كانت 'زينب' شابة صبيحة الوجه قوية البنية ممتلئة الصحة والحيوية تسكن قرية صغيرة في جوار زنجان. وكانت متأججة بنار الإيمان المشتعلة في صدرها لمحبة دينها الجديد، وقد أثرت فيها مناظر المتاعب والآلام واستمرار القتال وما قاساه أصحابها من الرجال والنساء وأثار فيها حماسة وشجاعة لا تنطفئ شعلتها بين جوانحها.

مع مرور الوقت، لم تعد تطيق الصبر بعيداً عن مشاركة إخوانها في الدفاع عن أنفسهم، فما كان منها إلا أن وضعت على رأسها قلنسوة مثل بقية الرجال وقصت شعرها وتقلّدت سيفاً وبندقية ودرعاً وتوجهت نحو القلعة مغتنمة فرصة انضمام مجموعة أخرى من الرجال، فاندست بينهم وألقت عليهم تحية البابيين الخاصة 'الله أكبر' معلنة للحراس المتأهبين رغبتها في مشاركتهم مجهوداتهم والانضمام الى

صفوف المدافعين والمقاتلين. فلم يثر منظرها الرجولي وما تحمله من سلاح، أي ريبة أو شكوك في كونها امرأة وليست رجل، خاصة بعدما قدّمت نفسها لحراس القلعة باسم 'علي' وبعدما شاهدوا منها اندفاعها في تقديم المساعدات وما أظهرته بعد ذلك من القوة والحيوية في مشاركتهم معاركهم وأعمالهم الجهادية.

بقيت زينت أو الفارس 'علي'، ترتدي اللثام لا تسفر عن وجهها طوال الوقت وتغطي معالم جسدها الانثوي بعناية ودقة، وتتجنب مخالطة الرجال أو النساء وحتى الأطفال حيث اتخذت لها مكانا قصياً في أحد جوانب القلعة للراحة والنوم، وبقيت تشارك أصحابها وتهب لمساعدتهم في معاركهم وتنجز ما تكلف به من أعمالهم داخل القلعة، لذا لم تدخل الريبة في قلوب المحاصرين عن حقيقة شخصيتها وبقوا يعتقدون أنها رجل يفضل الوحدة والإنزواء، خاصة حينما شاهدوا منها شدة تعلقها بديانتهم وأدائها فروضه من صلاة وصوم وأدعية حسب طريقتهم.

حدث بعد وصول زينب بعدة أيام، أن أطلق حراس أبراج القلعة نداءهم معلنين عن بدء هجوم جديد من أعداءهم، فسارع المحاصرون لتنظيم صفوفهم وترتيب أعداد فصائلهم واضعين على رأس كل فصيل منهم قائداً ومساعداً، وعندما نادى أحدهم عليها بالانضمام الى إحدى الفصائل، أبدت رغبتها في البقاء حرّة في حركتها وقتالها وطلبت أن تترك لوحدها تقرر طريقة مشاركتها في الدفاع والمساعدة؛ فكان لها ذلك.

أسرعت زينب لتمتطي صهوة جوادها مثلما فعل رفاقها، وبمجرد أن فتح باب القلعة وانطلق الرجال يسابقون بعضهم بعضاً لصد صفوف الجيش المهاجم تتبعهم

زوبعة الغبار والأتربة وبعدما شاهدت ابتعادهم، انطلقت لتلحق بهم وهي تستكشف مواقع التصادم والقتال وتحث حصانها على الجري والاسراع، فاختارت مكانا حامي الوطيس تعلو منه صيحات المقاتلين وتتساقط فيه أجساد الرجال، فسحبت لجام حصانها لتميل برأسه متوجهة نحو تلك الناحية، وما هي إلا بضع ثوان حتى اندفعت لتشق طريقها وسط صفوف المقاتلين رافعة سيفها تضرب به ذات اليمين وذات الشمال. فاقتحمت الموقعة بجرأة الرجال وقاتلت بقوة وبسالة لفتت اليها انتباه كل من شاهدها من أصحابها وأعدائها وهي تجندل الجند على ناحيتيها وتفتح الثغرات بين صفوفهم مما ساعد في تخفيف الضغط عن أصحابها وإعطاءهم فسحة للمناورة والاندفاع وتشديد الضغط للتقدم. بينما بقيت هي تشق الصفوف وتفتح الثغرات وتنثر جثث الجنود وأجسادهم، مما أثار انتباه حراس القلعة وهم فوق أسطحها ينظرون الى فارسهم الملثم المغوار، وراح كلا منهم ينبه صاحبه لقوة تأثير هذا المبارز في ميلان كفة القتال وتغيير حدة ثقلها. وكلما طال وقت المعركة، كلما كانت زينب تزداد قوة وحيوية.

عندما انتهت هذه الصولة الدامية وفض الاشتباك بين الطرفين وعاد فريق الأصحاب الى قلعتهم يحملون قتلاهم وجرحاهم بعدما شتتوا صفوف الجنود واجبروهم على التراجع والانسحاب يائسين، عادت زينت لتنزوي في مكانها القريب من حظيرة الخيول لتستريح هناك وحيدة بعيداً عن عيون أصحابها التي كانت تلاحقها بنظرات الإعجاب، بينما هي تتجنب مخالطتهم وغيرهم من النساء والأطفال، فلم يشكّ

أحدهم بعد ذلك أنها فتاة، خاصة بعد تلك المعركة وما كان من مواقفها البطولية الرائعة بين صفوف جند الأعداء.

بقيت عيون أتباع القلعة تراقب الفارس الملثم، فلاحظوا كيف كان ينهض من مكانه في أوقات الطعام ليتقدم ويأخذ القليل منه، فيحمل صحنه ثم يعود به الى ركنه القصي ليتناوله بهدوء ثم ينام مفترشاً الأرض متوسداً ذراعه وقابضاً بالأخرى على حسامه. وكلما كانت ترتفع صرخات الحراس محذرة من هجوم جديد، كان 'علي' يهب ناهضاً كالغضنفر وسيفه في يده مسارعاً في الانضمام الى معمعة المقاتلين ولينزل في قلوب أعداءه الرعب والهلع، بعدما أصبح لهيكله علامة فارقة بين أصحابه إضافة الى لون حصانه المميز. أما الجنود فكانوا يخوضون قتالهم مع أصحاب القلعة، وعيونهم تترصد ظهور ذلك الفارس الملثم متمنين أن يختار نقطة هجوم بعيدة عن مواقعهم.

عندما وصل خبر الفارس 'علي' وشجاعته الى القائد 'الحجة'، وعلم أنه يحجم عن الحديث أو مخالطة الموجودين ويلتجيء في أوقات راحته دائماً الى مكان قصيّ قرب مجمع الخيول وحظائرها ويكتفي بحصيرة قاسية ينام عليها، ولا ينزع اللثام عن وجهه طوال فترة وجوده، لا في النهار ولا في الليل؛ وبعدما تأكد 'الحجة' من اخلاص عليّ وشجاعته في ساحة المعارك، أثار هذا التصرف الغريب حفنة من التساءلات في رأسه وبدأ يفكك أحجية سرّ لغز شخصية هذا الفارس الشجاع، فالحجة كان على معرفة بغالبية أهل المدينة ومناطقها المجاورة كباراً وصغاراً، غنيهم وفقيرهم، ماذا يعملون وأين يقيمون وأسماءهم وأسماء آبائهم وأولادهم، فلقد كانوا جميعاً يحبذون الاتصال به والتقرب اليه ونيل بركاته ويطلبون مشورته ونصائحه.

لذلك أدرك الحجة أن هذا الفارس الملثم ليس في حقيقته إلا بنتاً تتجنب كشف هويتها. ومما زاد في صحة تخمينه، أن زينت بقيت تغطي وجهها بقناعها وتحاول الإيحاء للحجة برجولتها عندما طلب لقاءها. فاحترم رغبتها في كتم سرّ شخصيتها ولم يحاول سؤالها عن حقيقتها أو إسم عائلتها أو مكان سكنها؛ لكنه لم يترك هذا اللغز الصغير دون محاولة حلّه.

بقي 'علي' يسارع في الانضمام الى جماعة المدافعين كلما طرق سمعه ارتفاع أصوات الرصاص وصفير نفير هجوم الأعداء وانفجار تساقط القنابل في أنحاء القلعة وأرجاء الحيّ القريبة، وكلما هبّ الرجال مسرعين لامتطاء خيولهم. فكانت جسارتها في اندفاعها وشراسة قتالها أمر عجيب لا يصدق، بينما كانت هجماتها وسط الجنود وهي تصيح "يا صاحب الزمان" غير مبالية بما تواجهه من صفوف الجنود وحرابهم الممدودة وزخات رصاصهم، أمر جلب انتباه الفريقين وأدهش الصديق قبل العدو في خضم تلك الملاحم المتتالية؛ فما قدمته زينب من جرأة وشجاعة وسعة حيلة، لم يسبق أن شوهد له مثيل حتى من بقية الرجال، فلقد كان أمراً عجيباً لا يصدق أقرب الى الخيال.

اشتهر الفارس 'علي' بين أعداؤه أكثر من أصحابه، وبدأوا يميزون مشاركته من صيحاته المتكررة ولون حصانه وصاروا يصفونه باللعنة التي أرسلها الغضب الإلهي عليهم، وكلما كانت تبدأ المواجهات بين الطرفين، كانت عيون الجند تبقى منتظرة تتفحص الآفاق مترقبة ظهور ذلك الفارس الملثم لتوجه اليه رصاص بنادقها علّها تصيبه وتقتله وتتخلص منه، فلقد كان مبعث طاقة وحيوية لقلوب أصحابه يمدهم

بالشجاعة والإقدام حينما يتوغل بين صفوف الجند وضباطهم ويبعثر تشكيلاتهم. أما سرعة انطلاق حصانه وطريقة ركوبه صهوة جواده وفروسيته، فكانت تزيد من صعوبة إصابته عسراً، لذا لا غرابة أنه كان يصل صفوف الجنود وخنادقهم ويشق تلاحمهم في كل مرة دون أن يصيبه أحد منهم، مما كان يدفعهم للهروب من سيفه المسلول مرعوبين قانطين تاركين استحكاماتهم بانهزام مخجل.

وكلما انتهت معركة من المعارك وعاد الطرفان الى مواقعهم، كان موضوع الفارس الملثم وصولاته ومبارزاته محور حديث الجند في معسكرهم أثناء وقت استراحتهم وكانوا يستغربون من عدم قدرتهم على إصابته وسرعة وصوله بين صفوفهم وطريقة استخدامه لسيفه، ولأنهم كانوا لا يعرفونه ويجهلون حقيقة شخصيته، أطلقوا عليه اسم 'الغضب'.

ذات مرة وفي معركة جديدة من المعارك، وبينما كان الحجة يراقب مجريات تحركات العدو من فوق أحد الأبراج ويشاهد ما يجري من إلتحام شرس بينهم وبين أتباعه، لفت انتباهه مرة أخرى ما كان يظهر من بسالة وشجاعة ذلك الفارس الملثم. عندها مرّت بخاطره صورة تلك الفتاة القروية الصبيحة 'زينب' وتذكر عائلتها ووالديها وموقع زقاق بيتهم.

بعدما انتهى التصادم والقتال وعاد الرجال الى مواقعهم داخل القلعة وهم يحملون ما غنموه من طعام وغذاء وسلاح وذخيرة، كانت زينب ما تزال مستمرة في ملاحقة الجنود المنسحبين دون كلل ولا ملل غير مبالية بما يطلق عليها من رصاص

الأعداء، فما كان من الحجة إلا أن أرسل بعض الفرسان خلفها لاستدعاءها بعدما شاهد إصرارها على ملاحقة أعداءها رغم انسحاب مقاتلي الطرفين الى مواقهم.

استغربت زينب لدى ابلاغها برغبة الحجة في الكف عن ملاحقة الجنود ودعوته للقاءها، وأول شيء خطر في ذهنها احتمال اكتشافه لحقيقة شخصيتها، فهي ما زالت تذكر إحدى زياراته لمنزل والديها وكيف باركها وامتدح خدامتها لهما وقيامها بأعمالها المنزلية اضافة الى رعاية الحقل والمزروعات.

بتلبيتها الأمر وعودتها وسط اعجاب المحيطين بها، تقدمت لوحدها الى غرفته لتقف بين يديه صامتة هادئة منكسة الرأس تنتظر أوامره، فبادرها الحجة بالقول ملمحاً الى كونها امرأة، قائلاً: 'لم تظهر مثل هذه الحيوية والشجاعة من أحد حتى ولا من أشجع رجالنا'. ثم سألها عن بغيتها والدافع من وراء هذا المسلك الحيوي الرائع.

عندها انفجرت زينب في البكاء، وأفصحت عن شخصيتها قائلة: 'لقد تألم قلبي بالشفقة والأسى عندما شاهدت آلام أقراني ومعاناتهم وكثرة الجيوش المحيطة بهم، فتقدمت بحافز داخلي لا قدرة لي على منعه. وكنت أخشى أنك لن توافق أن تهبني هذا الامتياز ويكون نصيبي مع رفاقي الرجال إذا ما كشفت عن شخصيتي'.

فأجابها الحجة: 'لا شك أنكِ نفس زينب التي أعرفها في تلك القرية'.

أجابت: 'نعم أنا هي يا سيدي، وإني أؤكد لك أنه لم يطّلع أحد على حقيقتي سواك، وأستحلفك أن لا تحرمني من هذا الفخر الذي لا يدانيه فخر، فإن تاج الشهادة هو مرغوب حياتي الوحيد'.

تأثر الحجة شديداً من لهجة طلبها ونمطه، وسعى لتهدئة خاطرها بعدما شاهد دموعها تنهمر من مقلتيها، وقال لها: 'إن هذا اليوم هو يوم القيامة. فالله يحكم على عباده حسب طبيعة معتقدهم وأسلوب حياتهم وليس حسب مظهرهم الخارجي، سواء كانوا رجالاً أم نساءً. ومع إنك فتاة صغيرة السن قليلة التجربة، ولكنك أظهرت من الحيوية والنشاط، ما لا يأمل إلا قليل من الرجال الإتيان بهما.'

أطرق الحجة قليلاً، ثم أعرب لها عن موافقته على طلبها وقبوله بقاءها بين صفوف رجاله، ووعد بعدم الكشف عن شخصيتها، لكنه حذرها من تعدي الحدود التي فرضها عليها دينهم وعدم ملاحقة الخصوم بعد توقف سير المعارك، وذكّرها قائلاً: 'علينا أن ندافع عن حياتنا ضد المهاجمين الغادرين وليس لنا غاية في إثارة حرب دينية ضدهم.'

وبعدما أكد لها دعائه الدائم ومباركته لجهودها، تبسّم في وجهها ليخفف عنها ارتباكها، ثم أطلق عليها لقّب "رستم علي" للدلالة على قوتها ونبل شجاعتها. ثم خرج من غرفته ليعلن الى أصحابه الاسم الجديد. ففرحت زينب فرحاً كبيراً بهذا اللقب، ومن ساعتها اشتهرت به بين أقرانها.

استمرت زينب مدة لا تقل عن خمسة أشهر، وهي تقاوم قوات العدو وتقاتلهم ببطولة نادرة لا مثيل لها. وكانت تعمل بجد ونشاط للأمر الذي أحبته وأخلصت له، متناسية وفرة الطعام أو قلته، وما تناله من فترات نوم قليلة. وهذا ما أثار في قلوب بعض المتزلزين والمتذبذبين من الرجال والشباب حماسة المشاركة

والقتال بفعالية وعزيمة أكثر للذود عن دينهم وقلعتهم والحيّ القريب من القلعة. وكانت تذكّر دائماً من يستمعون لقولها أهمية البذل والعطاء في تلبية واجباتهم.

كان كل واحد من الأصحاب رجالا ونساء، موكلاً بتأدية مهمة خاصة به أو نقطة حراسة يدافع مع أصحابه عنها، وفي حالة مقتله أو اصابته، كان يحل غيره بسرعة ليشغل مكانه ويأخذ مهام واجبه؛ فمنهم من كان يهتم بتعليم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة وحفظ الآيات، ومنهم من اختص باعداد الطعام وطهيه، ومن تولى العناية بالخيل وأعلافها، وبينهم من تولى أمر جلب مياه الشرب أو سقاية الخيل والمزورعات، وبينهم من اهتم برعاية المصابين وتضميد جراحهم ومن تولى أمر غسل وتنظيف قدور الطعام وأطباقها. أما 'زينب'، فقد نالت بعدما لقبت برستم علي، التأييد في استمرار اختيار واجبها والتنقل حرة حيثما تشاء بين مواقع الدفاعات وأسوار القلعة وبروجها، وصارت تنطلق في هجماتها لتتقدم الصفوف وتخترق قلب نقاط الالتحام التي تختارها وهي مستعدة على الدوام لحماية أي نقطة تراها مهددة وفي خطر من هجمات جنود العدو، وكانت تسارع فوراً لنجدة أصحابها حينما يطلبون مساعدتها وعونها. لكن مشكلة المحاصرين الأساسية كانت مستمرة في نقص كميات الطعام وقلة أدوات معالجة جروح المصابين وتطبيبهم ووقف نزف دمائهم، فقد مات العديد من جرحاهم جراء هذا النقص الحاد.

بعدما طالت صولاتها ومنازلاتها وجولاتها وتلاحمها مع أعدائها، بدأ سرّ شخصيتها ينكشف تدريجياً بين أصحاب القلعة، ومن ثم تسرب الخبر بطريقة ما الى أعدائها وانتشرت الأخبار بينهم أن الفارس الملثم، ما هو إلا شابة قروية وليست

فارساً من صناديد الرجال! وهذا ما زاد في عزيمة الضباط والجنود للنيل منها والتركيز عليها في مواجهاتهم التالية بمحاولة اطلاق الرصاص عليها واصابتها، وخصص الضباط لهذ الهدف مجموعة من القناصة وزعوهم في مناطق متفرقة لزيادة فرصة اصابتها. ومع انها علمت بانكشاف سرّها للأصحاب والاعداء على السواء، إلا أنها استمرت في جهودها وقتالها ترهب أعدائها بتأثيرها الفعال وترعبهم بقوة هجماتها، وبقي صوتها الجهوري كافياً لإيقاع الرعب واليأس في قلوبهم ونفوسهم.

ذات صباح باكر، استيقظت زينب من نومها وهي تشعر بألم شديد أسفل بطنها مما أجبرها على الاستراحة كي تستعيد بعض عافيتها، وهذا ما نصحن به بعض السيدات أيضاً ممن كن بقربها، بينما قامت بعض صغار الفتيات على مداراتها وخدمتها. وما أن استنارت السماء بأنوار قليلة من شمس ذلك الصباح، حتى علا صوت الصياح والنفير محذراً من هجوم الأعداء، ثم بدأت القنابل تتساقط على القلعة في مختلف أنحائها. في نفس الوقت، كان المدافعون يستعدون لامتطاء صهوات جيادهم ليصدوا ويفشلوا هذه الهجمة ويكسروا شوكة أعداءهم بعدما انتبهوا لتحركات حشودهم أثناء الليل. فتزامن خروج الفرسان مع صوت بوق النفير، وما هي إلا دقائق، حتى تبدل ذلك السكون المحيط بالمكان الى صخب ارتفع الى عنان السماء فوق المدينة وما حولها. فكان رجال القلعة يسابقون الرياح متجهين نحو صفوف الجند المتراصة بينما كانت قنابل المدافع وطلقات الرصاص تسقط أفضل شجعانهم وخيولهم حتى التحم الطرفان في قتال مستميت وعلا صوت الرجال فوق مستوى أزيز الرصاص وقرقعة السيوف والرماح، وعندما لاحظ حراس القلعة

شراسة المعارك وقوتها وأن أصحابهم بدأوا يتساقطون على التوالي وشاهدوا استمرار وصول المزيد من الامدادات لأعداءهم مع بقاء جحافل فرسان القبائل تساند قوات الجيش وتتوالى تباعاً لتساعدهم، وشاهدوا كثرة أعداد المدافع المشاركة وحيويتها، وتبين أن كفة النصرة بدأت تميل لجانب الجيش؛ في تلك الأثناء كانت زينت تقف بين صفوف رفاقها فوق أحد جوانب أسوار القلعة تراقب سير المعركة وهي تتحرق شوقاً لمشاركتهم وتتأسف في نفس الوقت لتوقيت مرضها، وعندما فاض بها كأس الصبر وهي تشاهد رجال دينها يتساقطون واحداً تلو الآخر، ولمّا لم يعد بإمكانها البقاء ساكنة في موقعها تكتفي بمراقبة سير الأحداث وجفّ كأس صبرها، أسرعت وعلامات الاضطراب بادية على وجهها لتقترب من موقع الحجة الذي كان يراقب سير المعركة أيضاً، ورمت بنفسها على قدميه متضرعة باكية متوسلة ترجوه السماح لها بالخروج لمشاركة إخوانها في قتالهم، ومما قالته: 'أغفر لي جرأتي وتجاوزي في طلبي، فأنا أشعر منذ أول فجر اليوم أن حياتي قاربت نهايتها، وربما إذا شاركت إخوتي في هذه المعركة الآن، أني سأسقط بسيوف المهاجمين أو تمزقني مقذوفات بنادقهم أو حرابهم، وهذا كل أملي أن يسفك دمي في سبيل ديني ومعتقدي، فأتوسل اليك وأتضرع من صميم قلبي أن تسمح لي بالخروج والمشاركة لمساعدة إخواني في شدتهم وضيقهم، فكما ترى أنهم في ضيق وبأس شديدين وفي أمسّ الحاجة الى المساعدة'.

تأثر الحجة كثيراً من موقفها وتوسلاتها، في حين أن اللحظات كانت تمر حرجة والدقيقة الواحدة يمكنها التأثير في تغيير موازين حالة المعركة، فراح ينقل

نظراته بين سير معمعة المعركة والفتاة الراكعة أمامه تتوسله، ولم يكن هناك وقت لإطالة التفكير والتأمل، وعندما بقي صامتاً من شدة تأثره لموقفها ولم يجبها بشيء، تشجعت بسكوته واعتبرته علامة الموافقة والرضا، فوثبتْ من مكانها بكل عزيمة ونزلت السلالم مسرعة لتخرج من بوابة القلعة وهي تمتطي صهوة جوادها وتصيح بأعلى صوتها "يا صاحب الزمان"، في نفس الوقت الذي نادى فيه الحجة على مجموعة من حراس القلعة لترك مواقعهم واللحاق بها لمشاركتها هجومها في مساعدة إخوانهم.

كانت زينب أول الواصلين بين صفوف جند الأعداء وكانت قد بدأت لتوّها تقاتلهم حينما لحق بها رفاقها، ومع ذلك بقيت المسافة بينها وبينهم واسعة بعدما تغلغلت عميقا بين السيوف والحراب، وكانت تصيح بأعلى صوتها: 'تعالوا.. تعالوا.. وواجهوني أيها الجبناء، أين شجعانكم؟ ولماذا تهربون من أمامي بهذه الذلة إن كنتم صادقين في أيمانكم'.

وهكذا بقيت تتقافز بحصانها وكأنها تستعرض فنّ فروسيتها وقوتها وسط استحكامات العدو ومتاريسه وتشتت شمل جنوده وتقتل وتجرح من يطاله سيفها، فاخترقت ثلاثة صفوف من دفاعات الجند، وعندما وصلت الى الرابع كان وابل رصاص القناصة الذي ينتظرها قد خطّ طريقه اليها ووجد سبيله الى صدرها، فتمزق ذلك القلب المفعم بالمحبة والوفاء لدينها وعقيدتها، وها هي زينب تسقط مضرجة بدمها تلفظ أنفاسها الأخيرة على عجل، كما وكبا حصانها بجنبها وهو ينظر بحسرة عاجز اليها.

بسقوط زينب عن ظهر جوادها واستقرارها على الارض جثة هامدة والدماء تسيل من صدرها.. وكأن الفريقان توقفا عن القتال لبرهة، وكأن حدثاً جللاً ومصاباً قارعاً لفّ جميع رجال ساحة الوغى. ثم.. وفجأة.. علت أصوات بهجة وفرح وتهليل من عدة جهات في مواقع الجنود، بينما كانت تخالطها في نفس الوقت أصوات حسرة وآهات ألم من جوانب أخرى متفرقة، وامتزجت الأصوات وتخالطت مما دفع بالمتقاتلين الى كفّ أيديهم عن بعضهم لثوان وجمدت أقدامهم لبرهات وصار كلا منهم يلتفت بحذر ذات اليمين وذات الشمال يستطلع حقيقة ما حصل وما سبب الوجوم الذي خيّم على المعترك. وحالما فهم بقية أفراد الفريقين ضخامة المكسب وحجم الخسارة، عادا ليتقاتلا بكل شراسة وعنف، هذا يريد زيادة نقاط انتصاره، وذاك يريد الانتقام لخسارته ومعادلة الموقف.

إلا أنه وتقديراً لبطولة زينب وشجاعتها، وشدة احترام جند الأعداء لهذه الفارسة الباسلة قبل رفاق سلاحها، لم ينبس أحد منهم ببنت شفة فيما يتعلق بطهارتها وأيمانها وشجاعتها وفروسيتها أو يتجاهل سمو اعتقادها وأخلاقها.

بقيت جثة زينب ملقاة على أرض المعركة مضرجة بدمائها حتى فضّت الاشتباكات بين المتقاتلين عند حلول المساء وانتهت موجة هذه المعركة الشرسة؛ وحينما هدأ الضجيج وخفت قرقعة السلاح وارتفع صوت المنادي يعلن عن هدنة قصيرة بين الفريقين لكي يحملوا جرحاهم ويدفنوا جثث قتلاهم، كانت جثة زينب تأخذ اهتماماً خاصاً من رفاقها. فحضرت مجموعة من نساء القلعة لتتكفل بحملها ونقلها، فوضعن جسدها فوق عربة خشبية قديمة يجرها حصان، ثم عُدن ليتوجهن الى

داخل الحصن وهن يبكين ويذرفن الدموع حزناً على فقدان هذه البطلة الشجاعة. وبعد إقامة الصلاة على روحها وأرواح بقية القتلى من الأصحاب، دفنت بكل احترام في قبر لوحدها تحت جدار بعيد في بقعة نائية من زوايا القلعة.

ونظراً لما شوهد ولمس من ولائها وإخلاصها في الدفاع عن دينها، وما قدمته من شجاعة نادرة، أعلنت في ذلك اليوم نحو عشرين امرأة من معارفها وصديقاتها ومن أقربائها أيمانهن بدين السيد 'الباب'، بعدما أدركوا أنها لم تكن هي ذات تلك الفتاة القروية البسيطة التي سبق وعرفوها من قبل، بل كانت عنوان الفضائل الإنسانية النبيلة ومثال الأخلاق الطيبة ومظهراً ناطقاً للروح الطاهرة التي لا يقدر على خلقها سوى الدين الذي اعتنقته.

الفصل السادس

الجيوش تتجمع

كان لوصول الأمير 'تومان' الى زنجان على رأس جيشه الضخم، إشارة فارقة لاستئناف القتال بكيفية لم تشهد المدينة مثلها من قبل مطلقاً. حيث انضم تحت لوائه سبعة عشر فوجاً من الخيالة والمشاة حاربت جميعها مع ضباطها تحت إمرته، وانضم اليهم كذلك محمد خان الذي كان قائد فرقة ضخمة ومعه ثلاثة آلاف رجل من أفواج شكّاغي وأفواج خاصة من الحرس ومعهم ستة مدافع ومدفعيّ هاون. وفي الوقت نفسه تقريباً دخل المدينة بقواته من حيّ آخر، قاسم خان، قادماً من حدود كَرباغ، وكذلك الرائد أرسلان خان ومعه الخيالة الأشداء من خيركان، وأيضاً علي أكبر نقيب خوي ومعه أفواجاً من المشاة.

لم يكن قدوم كل هذه الجيوش وأفواج المقاتلين والخيالة ورجال المدفعية، إلا بسبب استلام كل منهم فرماناً ملكياً في وقت واحد تقريباً، يأمر بالانضمام فوراً الى معارك زنجان؛ وهذا ما دفعهم للطاعة والتنفيذ، فتزامن وصولهم في وقت متقارب.

كانت الحركة دائبة في المعسكرات التي أقيمت على عجل في السهول الممتدة خارج حدود المدينة، وكانت صفوف الجنود ومعداتهم تموج وتتنقل في كل مكان، والاستعدادات جارية على قدم وساق، وصوّبت قوات المدفعية فوهات ما لا يقل عن أربعة عشر مدفعاً نحو القلعة بأمر الأمير تومان، منتظرة أوامر الاطلاق في أية لحظة؛ وتحسباً لمزيد من الحيطة والاستعداد، جنّد الأمير من الجهات والمناطق

المجاورة للمدينة خمسة أفواج إضافية من الرجال القادرين على حمل السلاح، وبدأ الضباط بتدريبهم على استعمال السلاح وكيفية القتال كجنود احتياط مستعدين للتدخل إذا لزم الأمر. كان الأمير تومان متحمس جداً، ففي نفس الليلة التي وصل فيها الى أطراف زنجان واستقر في معسكراته، أمر بنفخ الأبواق وضرب الطبول والاستعداد لشن هجوم شامل.

ثم أصدر أمره الى ضباط المدفعية للبدء بإطلاق النار على القلعة في التوّ والحال وبشكل كثيف. وما كاد صوت المدافع يدوي مجلجلاً في سماء المنطقة والذي كان يسمع على بعد أربعة عشر فرسخاً[2]، حتى أمر الحجة أصحابه أن يردوا بالمقابل بإطلاق النار من مدفعين سبق لهم أن غنموها من الجنود من قبل، وكانوا قد نقلوا أحدهما إلى مكان عال فوق أسوار القلعة يشرف على معسكر الأمير، ثم بدأوا بدورهم بالاطلاق، وكانت المفاجأة كبيرة حينما أصابت إحدى قنابلهم خيمة الأمير نفسه مباشرة وجرحت جواده العزيز على قلبه جرحاً مميتاً؛ وهذا ما زاد من حنقه وشدة غضبه، فأمر بالمقابل بتصويب نيران مدفعيته على القلعة بشدة رداً على هذه الجسارة والجرأة، وبذلك قتل عدد كبير من سكانها ودمرت بعض أجزاء أسوارها وأبراجها مما دفع بالمحاصرين الى التعجيل باعادة ترميم وإصلاح ما حصل من تهديم وثغرات خوفاً من استغلال الجند لها والمرور من خلالها وهم منشغلون بتفادي القنابل والرصاص.

[2] - الفرسخ يساوي ستة كيلومتر تقريبا.

ولم يقتصر القتال على إطلاق المدافع والرصاص من مسافات بعيدة، بل كانت هناك العديد من الاشتباكات المباشرة والكرّ والفرّ بين رجال الطرفين. وبمرور الأيام وتوالي كثرة المعارك، اتضح للأمير تومان بشكل واضح أن قواته أيضاً عاجزة عن إحراز النصر السريع الذي كان يتوقعه بشوق بالغ رغم تفوق قواته بالعدد والعدة والتدريب والرجال والمدافع أضعافاً مضاعفة على خصومه.

أما ما كان من أمر مقتل إبن أخ الحاج سليمان خان، أحد قادة جيش المملكة أثناء إحدى المواجهات العنيفة، فقد أثار دهشة رئيس الوزراء الذي أرسل خطاباً شديد اللهجة إلى القائد العام يوبخه فيه على عجزه في التغلب على مجموعة قليلة الحيلة والخبرة من المدنيين المحاصرين وإجبارهم على التسليم وترك مواقعهم بلا قيد ولا شرط. وكتب إليه قائلاً: 'لقد شوّهتَ اسم مملكتنا ولطخت سمعة جيشنا بالوحل، وأوهنت معنويات الجنود حتى ضاعت قدراته، وضيعت حياة أقدر ضباطه وأشجع فرسانه'.

ومما ضمّ خطابه أيضاً، أوامره بتشديد تطبيق نظام صارم بين مرؤوسيه ليطهر المعسكر من كل رذيلة وفجور ويوقف ليالي الضباط الصاخبة وكثرة مرحهم واستهتارهم ويمنع دخول بنات الهوى الى خيام الضباط داخل المعسكرات، وحرضّه كذلك على التشاور مع رؤساء سكان زنجان وكبار شخصياتها، وحذره إذا لم ينجح في ذلك كله ولم يحرز النصر، فإنه سوف لن يتردد بمعاقبته وانزال رتبته. وزاد على ذلك بالقول: 'وإذا كانت جميع هذه القوى المجتمعة تحت أمرتك بعدتها وعديدها عاجزة عن إخضاعهم والتغلب عليهم، فإني سأضطر للمجيء بنفسي إلى زنجان،

وسآمر بذبح أهاليها جميعاً دون استثناء بغضّ النظر عن مراكزهم أو معتقداتهم أو انتساباتهم القبلية، فان مدينة تجلب كل هذا العار المشين على سلطة الشاه ودولته وكل هذا الأسى لأهل مملكته فهي غير جديرة برحمة مليكنا'.

حالما تسلم الأمير تومان خطاب رئيس الوزراء وقرأه واطلع على ما ورد في مضمونه، حتى أصابه الفزع وتملكه الارتباك، فدعا في سورة من الغضب واليأس جميع عمداء الحارات وكبار شيوخها ومعهم رؤساء الناس وجميع رجال الدين وأظهر لهم نص الخطاب وقرأه عليهم بصوت عال بلهجة مليئة بالغضب. وبتحريضه الحثيث لهم وشديد تهديداته ووعيده المباشر ومن خلال قوة لهجة كلمات الرسالة، تمكن من تحفيزهم ودفعهم للمبادرة في العمل فوراً، فانطلق كل منهم يعمل ما في وسعه للمشاركة في مناصرة جهود الجيوش وشدّ أزرهم.

من فجر صباح اليوم التالي، تطوع كل رجل قادر على حمل السلام والقتال في زنجان وما حولها للانضواء تحت لواء الأمير تومان، فصار تحت إمرته جحفل عظيم إمتلأت بهم ساحات المعسكرات وسهول المناطق المحيطة بالمدينة والقلعة التي أصبحت كجزيرة وسط بحر من الجنود. ولم يتأخر الأمير كثيراً في ترتيب هجوم ثان جديد شرس على المحاصرين، فسار بهم جميعا على الفور نحو القلعة يرأسهم المخاتير وتتقدمهم أربعة أفواج من الجنود تصحبهم أصوات عزف الأبواق ودق الطبول وسط تشجيع الرجال وحث رؤسائهم، فكانت الأرض تهتز تحت وقع أقدامهم وكان كل منهم يشجع الآخر ويستبشر- بالنصر- القريب وإبادة الثلة القليلة القابعة خلف الأسوار.

كل ذلك يجري، وأصحاب الحجة يراقبون ما حولهم بعيون وآذان مفتوحة ويستعدون بصمت وعزم واضح علا وجوههم لمواجهة هذه الأمواج العسكرية المتجهة نحوهم بلا نهاية، لكنهم كانوا غير مبالين بما رافق ذلك الزحف من ضجيج وصراخ اهتزت له أسوار القلعة.

وفجأة.. وعلى صوت واحد ودفعة واحدة وبشكل غير متوقع من قبل حشود الجنود، علت الى عنان السماء صيحة "يا صاحب الزمان" وانطلق المحاصرين خارجين من بوابة القلعة لينقضوا ويلتحموا كالنمور والأسود مع صفوف الجنود الأمامية. فكان هذا النزال والعراك أشد وأقسى محاربة وقعت حتى ذلك الوقت بين الفريقين، سقط أثناءها خيرة رجال أتباع الحجة فريسة لمجزرة وحشية. فكم من ابن ذبح بقسوة مطلقة تحت نظر والدته وهي تراقبه من فوق الأسوار يترافس تحت سيوف الجنود وحرابهم، وكم من أخت نظرت بعيون الهلع والحزن الى رؤوس إخوانهن مرفوعة على الرماح ومشوهة بأسلحة أعدائهم. وهذا ما أوجد حماسة عجيبة عند الكثيرات، دفعت بهن للنزول الى ساحة الوغى لمشاركة إخوانهن ومساعدة رجالهن. ووسط هذه المعمعة والحماس الهائج والقتال البطولي الشرس من جانب أصحاب الحجة في مواجهة وحشية الأعداء وهياجهم، بقيت ترتفع أصوات النسوة اللائي كُن يحارين جنباً الى جنب مع رجالهن وهن يشجعنهم ويحمسنهم. فكان لهذا التشجيع البطولي دور كبير في شبوب نيران الغيرة والحمية التي فجرت عامل الشجاعة والاستبسال والفدائية بين رجالهن للمجاهدة في كسب النصر الذي استخلصوه في النهاية بعد جهد جهيد وخسائر كبيرة بأعجوبة خرافية. فذلك التهليل

والابتهاج الذي ارتفع من أصوات النسوة في وجه العدو القوي وصيحات التشجيع لرجالهن زادت من استماتة الرجال وفدائيتهم لكسر هجوم الجيوش وكسب النصر عليهم.

كانت النساء تتخفى بملابس الرجال درءاً لاستغلال شخصياتهن وكن يهجمن مسرعات بنشاط عجيب للحلول محل الأخوة والرجال الذين يسقطون صرعى في الدفاع عن مواقعهم، بينما حملت أخريات قرب الماء ورحن يطوفن بين صفوف المحاربين من الرجال ليسقين عطشاهم ويعدن القوة والجلد للجرحى وهن يشجعن ويضمدن جراحهم، وكم من رجل لم يطق صبراً على شدّ جراحه وتطبيبه، فأسرع ناهضاً ليكمل مشواره وليسقط مرة أخرى صريعاً على بعد خطوات من مكان أخته.

استمرت المعركة بأهوالها ومذابحها وأصوات صياح الرجال وإطلاقات الرصاص وانفجارات القنابل المتساقطة في كل مكان وهي تمزق أجساد من تصادف وجوده في موقع سقوطها، بينما كانت صفوف الجنود تقاتل بشجاعة متفانية وهي تتقدم وتراجع لتعيد تنظيم صفوفها وحشو بنادقها. أما فرسان القلعة ومقاتليها، فكان من السهل تمييزهم من خلال ملابسهم المدنية وهم فوق صهوات جيادهم وباستمرار ندائهم بصحيات 'يا صاحب الزمان'. وكلما شعروا بالتشتت وتخلخل موقفهم، كانوا يتجمعون حول حامل رايتهم ليعودوا يكرّون من جديد.

بعد مرور يوم كامل على هذه الحالة من الرعب المخيف والحركة الدائبة، دبّ الارتباك والتشتت أخيراً في صفوف قوات العدو واختلّ تنظيم الجنود وأيقنوا أنهم

كانوا يخوضون حرباً خاسرة لا طائل من ورائها. فلقد كان لقلة الماء عندهم ولفرار عدد من قواتهم إضافة الى نفاد عتاد الكثيرين منهم، أن أصبحوا بعيدين وبمنأى عن أمل إحراز أي شكل من أشكال النصر، وكانوا في ذات الوقت غير قادرين على التقهقر المنظم، حيث ما زال أصحاب القلعة يقاتلونهم ويتغلغلون بين صفوفهم وكأنهم في أول ساعات المعركة.

في ذلك اليوم الصاخب الرهيب، سقط ما لا يقل عن ثلاثمائة من أصحاب الحجة الشجعان صرعى مضرجين بدمائهم، منهم من كانوا ممددين بلا رؤوس ومنهم من فلقت صدورهم وبقرت بطونهم وقطعت أوصالهم.

لقد كان ثمن الانتصار باهض جداً.

*****

الفصل السابع
محسن المؤذن

كان بين أصحاب الحجة، رجل تقي لطيف يدعى الحاج محسن، أسندت اليه وظيفة رفع أذان الصلاة في أوقاتها الخمسة، إضافة الى مشاركته رجال القلعة ببعض الأعمال الأخرى. وكان لصوته ميزة الدفء والعمق والقوة مما لم يتوفر لغيره في المناطق المجاورة، فكان يسمع رنينه في القرى المجاورة وهو يدعو المؤمنين للصلاة ويخترق قلوب سامعيه من مسافات بعيدة.

كثيراً ما كان يندهش المصلون داخل المدينة ورجال المعسكر من الذين تصل أسماعهم رنّة صوته الجميل، من غرابة إلصاق تهمة الكفر إلى الحجة وأصحابه مع هذا الإصرار على أداء الصلاة في أوقاتها. ومع مرور الأيام، علا احتجاج الناس على إلصاق مثل هذه التهمة القبيحة لانسان يحرص على دعوة المسلمين للصلاة في أوقاتها. وصلت هذه الاحتجاجات الى أسماع المجتهد الأكبر في زنجان، فأقلقه خبرها وحار كيف يتخلص من هذه المشكلة، ولما لم يقدر على اسكات اعتراضات المتسائلين، تضرع إلى الأمير تومان أن يتذرع بأي وسيلة ليمحو من قلوب الناس اعتقادهم في تقوى واستقامة الحجة وأصحابه. وكان يشكو إليه قائلاً: 'إني اجتهدت ليل نهار في أن أرسخ في عقول الناس، أن هذه الطائفة أعداء الرسول وأعداء دينه،

ولكن صوت هذا المؤذن محسن الشرير، يضيع تأثير كلماتي ويفسد مجهوداتي. فإهلاك هذا النذل هو من أولى واجباتك.'

في البداية، بقي الأمير يمتنع عن إجابة طلب المجتهد ولا يعيره إذناً صاغية، وبقي يرد عليه: 'أنت وأمثالك المسؤولون عن إثارة هذه الحرب الدينية ضدهم. ونحن لسنا سوى منتسبين للجيش وخدام للحكومة، وواجباتنا تقضي بإطاعة الأوامر العسكرية التي تصلنا من القيادات العليا. فإذا رغبتم في إنهاء حياة هذا المؤذن، فعليكم الاستعداد للتضحية إذاً.'

فهم المجتهد على الفور مقصد الأمير. وما كاد يعود لمنزله، حتى أرسل إلى الأمير مع مبعوث خاص من أتباعه مبلغ مائة تومان بصفة هدية، وهو مبلغ كبير يسيل له اللعاب لمهمة صغيرة مثل هذه. وما كاد الأمير يستلم الهدية، حتى أمر في الحال عدداً من رجاله المشهورين بالقنص، أن يكمنوا للمؤذن محسن ويطلقوا النار عليه ويقتلوه وقت رفعه الأذان.

صعد محسن أول ظهور خيوط أنوار الفجر فوق أحد أبراج القلعة كعادته، ووقف في مكانه منفرداً ليشرع برفع الأذان، وما أن نادى "الله أكبر"، حتى بدأت عيون القناصة تبحث عن مصدر الصوت لتحدد مكانه، وباعادته للعبارة، استدلوا على موقعه وأين يقف بالتحديد، وبمجرد أن صاح مكملاً: "أشهد ألا إله إلا الله". إذا برصاصة تصيبه في فمه قبل أن يسمع صوت إطلاقها وتقتله على الفور. فسقط المؤذن محسن وهو ينزف بشدة من جمجمته ويفارق الحياة.

استغرب سكان القلعة لانقطاع صوت المؤذن فجأة، مثلما استغرب من تعوّد على سماعه من أهل المدينة والمعسكر، فأسرع رجال القلعة اليه يستطلعون خبره، ولما لم يجدوه واقفاً في مكانه المعتاد، صعدوا مسرعين اليه، فوجدوه ملقى على الأرض والدماء تسيل من رأسه وجدار البرج ملطخاً ببقع الدماء المتناثرة. فحملوه الى أسفل والحزن طاغ عليهم لمثل هذا المصاب الأليم.

لما سمع الحجة بذلك العمل الوحشي وما جرى للمؤذن محسن، أدرك ما هدف إليه الأعداء، فأمر رجل آخر من بين الحضور للصعود بدلاً منه، لتكملة الأذان من حيث قطعه محسن. ومع أن المؤذن الجديد استمر في مهمته حتى انتهاء المعارك، إلا أنه قتل في نهاية المطاف مع الكثيرين من إخوانه بكيفية لا تقل شناعة عن مقتل زميلهم.

الفصل الثامن
أفراح وأعراس داخل القلعة

مضت الشهور بقيضها وزمهريرها، والمعارك الطاحنة مستمرة والحصار يزداد شدة، وقلت المؤونة ونفدت إضافة الى تناقص أعداد الرجال المدافعين، وبقي من بقي من أصحاب القلعة يعتمدون بنسبة كبيرة على ما يغنمونه من أطعمة الجند وأغذيتهم، فكانوا كلما انتهوا من إحدى معاركهم، حملوا معهم ما كان يجدونه متوفراً من سلال الخضار والفواكه وشوالات الحبوب والبقول من مؤونات الجيش، إضافة الى ما كان الجند يجمعونه من ماشية وخراف في حظائر المعسكرات، وهذا ما كان يساعد المحاصَرين على الاستمرار في الصمود والقتال. إضافة لما كانت تقوم بزراعته نساء القلعة من نباتات وخضروات قليلة تقدم للأطفال قبل غيرهم. وفي بعض الأحيان كان بين الرجال من يجازف بحياته للخروج متسللا حذراً أثناء ظلام الليل لبيع ما تتبرع به نسوة القلعة من حليّهن ومصوغاتهن لشراء كميات من الخضار من الباعة الجوالين بثمنها دون لفت انتباه الجند وحراسهم. ومع ذلك، كم من هؤلاء المغامرين كشف أمرهم وتعرضوا للقتل أو الأسر ومصادرة ما معهم من أموال أو مشتروات.

لقد مرت شهور الحصار قاسية جداً على المحاصَرين، وكم من أيام وليالي مرت وهم يعانون فيها من شدة الجوع، فأصاب الكثير منهم الضعف والهزال، ومع ذلك كان بعضهم يفضل غيره على نفسه في تناول فتات الخبز وقليل الطعام. وعندما كان المهاجمون يعودون محملين بأغذية الجنود وتعييناتهم، كانت النساء تنشغل بتخزينها وحفظها ووضع برنامج مرتب لتقسيم هذه الغنائم بين سكان القلعة تتفق مع طول مدد الأيام ولياليها، فيحرصن على إطالة مدد تناولها لأطول فترات ممكنة. وكنّ يتبارين في تدبير طرق الاقتصاد وتقسيم وجبات الطعام ويحرصن على إشباع الأطفال قبل الكبار، وهذا ما كان يدفع بالرجال الى المغامرة في الخروج واحضار الأغذية تحت أسوأ ظروف المعارك، فصراخ الأطفال الجوعى كان باعثاً كبيراً ومحفزاً قوياً يدفعهم للخروج والمغامرة، وكم من ليلة كانت الأمطار فيها غزيرة تعيق خروجهم وعودتهم لكثرة الحفر والأطيان وصعوبة دفع العربات عند عودتها.

بعدما طالت شهور الحصار وكان العام الجديد قد قارب الانتهاء، ولا أمل في وضع الحرب والمعارك أوزارها ولا رجاء لفك الحصار وتراجع الجند، كان هناك عدد كبير من الشباب العازب قد كبروا واتضحت عليهم معالم القوة والرجولة، حيث قويت وبانت عضلات سواعدهم وضاعفت أهوال الحرب من قساوة هيئاتهم وطالت لحاهم وبدا الكثير منهم أكبر من حقيقة أعمارهم.

ورغم انتشار آلام الأحزان بين أهل القلعة بفقدان رفاقهم وأحبائهم، إلا أن ذلك لم يمنع الحجة من اتخاذ قرار بعقد قران نحو مائتي شاب وشابة أثناء هذه الأيام الصاخبة المليئة بالقتال والموت والآلام. لذلك أمر جميع الشباب الخاطبين بإتمام

زفافهم، كما اختار زوجة لكل شاب أعزب لم يكن خاطباً من قبل، وبدأ ينفق من جيبه الخاص قدر استطاعته بما يوفر ويزيد من راحة المتزوجين وسعادتهم، وتدبر وسيلة للاتصال بصاحب محل لصياغة الذهب والفضة ما زال يسكن المدينة عن طريق أحد كبار أتباعه، وأرسله لبيع جميع ما تملكه زوجته من جواهر ومصوغات، إضافة الى ما قدمته بقية العوائل من مصوغاتهم. ثم تدبّر بمساعدة بعض الشجعان أمر خروج عدد قليل من النسوة أثناء ظلام الليالي وتحت ستار الأمطار وشدة الغيوم ليتدبرن أمرهن في شراء مستلزمات الأعراس والأفراح من زنجان ومدن أخرى مشدداً عليهن الإسراع في العودة في أقرب وقت. وبذلك وفّر للعرسان ما يجلب لهم بعض الراحة والسعادة تحت هذه الظروف الصعبة ولو لفترات قليلة قادمة.

وهكذا أقيمت الأفراح لأكثر من ثلاثة أشهر، بعدما خفّت شدة المعارك بسبب ابتعاد مخيمات معسكرات الجيش عن القلعة حذراً وتحسباً من هجمات مفاجئة عليهم، وكذلك لانشغالهم بانتظار مزيد من الامدادات والقوات المساندة لتعويض ما وقع بينهم من خسائر بشرية هائلة، أثرت كثيراً على قدراتهم العسكرية ومعنوياتهم النفسية.

كان الشاب يتزوج، بينما لم يمض على مقتل أخيه بضعة أيام، والبنت تزف لعريسها، وقد تيتمت منذ وقت قريب. وتمكن بعض العرسان من المكوث مع زوجاتهم حسب ما كانت تسمح به أوقات الفراغ الفاصلة بين تكرار هجمات الجيش وحدّة مدد القتال. فمنهم من استمر زواجه لمدة شهر، وآخرون دامت فرحتهم

لبضعة أيام أو حتى للحظات قصيرة، حينما كانت تقطعها دقات طبول الحرب وصيحات التكبير فيسارع الجميع لصد هجمات الجيوش. ولم يحدث أن تأخر أحد منهم عند سماع نداء الواجب لإجابة دعوة الداعي بسرعة وفرح كبيرين، وكان يتقدم كل منهم لفداء رئيسه دون تذمر أو تردد. وفي النهاية، شرب جميع العرسان قاطبة كأس الشهادة.

لم تخل بتامها أيام الأفراح ولياليها من القتال والاشتباك والتلاحم، حيث كان الضباط يختلقون المعارك بين الحين والآخر، كي لا يألف الجند الراحة ويتعودوا على الكسل ويصابوا بفتور العزائم، فكانت ليالي هؤلاء العرسان ممتزجة بالمصاعب وأيامهم مختلطة بالمتاعب الناجمة عن الصدامات المتفاوتة والحصار الطويل الصعب.

فكم من مرة هدد ضجيج هجوم العدو أفراح عروسين وقت مقابلتهما؛ وعندما كان نداء "يا صاحب الزمان" يرتفع لردّ الأصحاب عدو مهاجم، وإذ كانت العروس تطلب من زوجها برفق وحنان إطالة المكوث معها لدقائق قليلة أخرى، كان العريس يتركها بلطف ويتمنطق سلاحه ليخرج من غرفته أو خيمته ويمتطي حصانه ليهجم على العدو طلباً لتاج الشهادة وهو يقول لها: 'ليس هناك وقت كاف. يجب عليّ الحصول على تاج هذا الفخر الأبدي، ومن المؤكد أننا سنلتقي مرة أخرى على شواطئ بحور الأبدية مكان النعيم وموطن الحياة الأزلية.'

كان بين أصحاب الحجة رجل يدعى 'الكربلائي عبد الباقي'، والد لسبعة أبناء، عقد الحجة قران خمسة منهم في تلك الفترة، فكانت فرحة الوالدين كبيرة وعظيمة وهم يشاهدون أولادهم يتزوجون مرة واحدة. لكن حفلة الزفاف ما كادت

تتم، حتى علت على الفور صيحة تنبيه فزعة تدعو الجميع للاسراع في صدّ هجوم جديد عليهم. فخرج جميع العرسان حاملين أسلحتهم تاركين زوجاتهم وهن في قلق وحزن شديدين.

وفي تلك المعركة وفي ذلك النزال، قتل الإخوة العرسان الخمسة جميعهم واحداً تلو الآخر، وكان أكبرهم سناً، شاب مشهور بالذكاء والشجاعة النادرة. وعندما اقتاده الجنود أسيراً موثوق اليدين بحبل الى سرج حصان، وأدخلوه على الأمير تومان، صاح عليه الأمير غاضباً آمراً بمجرد أن وقعت عليه عينيه: 'اطرحوه أرضاً واحرقوا صدره الذي ضم للحجة حباً عظيماً مثل هذا.' فردّ عليه الشاب بكل شجاعة وأيدي الجنود ممتدة لتتناوله بكل عنف وقوة لتطرحه أرضاً: 'أيها النذل، لا تقدر أي نار تشعلها يد رجالك أن تحرق الحب الذي يتوهج في قلبي.'

*****

أم أشرف

من بين النساء اللاتي امتزن بقوة إيمانهن وشجاعتهن الفائقة، شابة عرفت فيما بعد باسم 'أم أشرف'، كانت قد تزوجت حديثاً قبل هبوب عاصفة زنجان المدمرة بشهور قليلة، وبما أنها كانت من المؤمنات البابيات، فقد نزحت مع بقية النسوة لتقيم داخل القلعة مع أصحاب الحجة حتى تساهم بدورها في الدفاع والمساعدة. وحدث ان أنجبت خلال شهور الحصار ولدها أشرف داخل القلعة، ومن حسن حظها أنها كانت ورضيعها ممن نجوا فيما بعد من المذبحة التي انتهت بها أحداث تلك المأساة.

ولما ترعرع ابنها بعد سنوات طويلة، وصار شاباً ذا مواهب واعدة، شملته اضطهادات زنجان المتكررة في إحدى الوجبات. وكان بين من ألقي القبض عليهم وصدر حكم الإعدام بحقه.

كان المجتهدون ورجال الدين يعرضون على المقبوض عليهم خياران لا ثالث لهما، إما إنكار تبعيتهم للدين الجديد أو القتل. وحينما حان دور أشرف وأحضر مقيداً أمام المجتهدين، عرضوا عليه الخيارين، فاختار الموت دون تردد. فحاول بعضهم بشدة وإلحاح إقناعه بالعدول عن رأيه والإرتداد عن معتقده لمعرفتهم المسبقة بحسن أخلاقه وأدبه بين أهل مدينة زنجان، ولما عجزوا عن ذلك رغم محاولاتهم المستمرة، لم يفقدوا الأمل تماماً في محاولة تخليصه من الموت قتلاً، ففكروا بمناداة على والدته التي كانت قريبة من مشهد الحدث كي تتدخل، فقد تنجح في إقناعه بالعدول عن رأيه وتخليصه من القتل، واجتهدوا في ذلك كل وسيلة لإخافتها وإثارة الرعب في قلبها لإقناعها بضرورة التدخل والمساعدة في إنقاذ ولدها قبل فوات الأوان.

وعندما حضرت ووقفت وجهاً لوجه أمام ولدها وشاهدته مقيداً بالسلاسل والأغلال والجماهير تحيط به من كل جانب تشمته وتتوعده وتسخر منه والجلاد يقف منتصباً فوق رأسه حاملاً سيفه بيده، رفعت الأم صوتها بين الجمع لتقول كلاماً أدهش كل من سمعها، قالت: 'إني أبرأ إلى الله أن تكون ولدي، إذا كنت تميل بقلبك إلى مثل هذه الوساوس الشريرة وتمكنهم من صدّك عن الحق.'

نزلت كلمات أم أشرف كالصاعقة على رأس كل من سمعها، أما إنها فلم يكن بحاجة الى مزيد من التشجيع أو الدعم كي يثبت على موقفه. وبذلك لم ير المجتهدون

ولا رجال الدولة سبيلاً غير تنفيذ حكم القتل بأشرف؛ فقابل التنفيذ بكل سكون واطمئنان.

ورغم مشاهدة الأم لأعمال القسوة والتعذيب تجري على جسد ولدها، إلا أنها لم تهتز ولم تجزع، بل ولم تدمع لها عين، وأظهرت هذه الأم العجيبة شجاعة وثباتاً أدهش أولئك الذين ارتكبوا تلك الفعلة المخزية. وحينما نظرت إلى جثة ابنها آخر مرة، صاحت قائلة وسط صمت الجمع المحتشد تخاطب جثته: 'أستذكر الآن ذلك القسم الذي أقسمته يوم ولادتك، إذ كنت محاصرة في قلعة علي مردان خان. وإني أبتهج الآن أن الولد الوحيد الذي أعطاني الله قد حقق آمالي بالوفاء بالنذر.'

*****

الفصل التاسع
الخديعة

إن القلم ليعجز عن وصف أو تصوير مقدار الاحترام والتبجيل اللائقين لذلك الحماس الملتهب الذي تجلى في قلوب المدافعين البواسل عن القلعة التي تبدلت صورتها ومعالمها بعدما دمرت القنابل أجزاءً من واجهاتها وثلمت بعض حافات أسوارها واصطبغت أحجارها بألوان دماء أبطالها وخرّب عدد من أبراجها. ومع كل ذلك، عجزت رياح التعصب وعواصف البغضاء على قوة اشتدادها في إطفاء لهيب حماسة المدافعين عنها، وكان الرجال والنساء يشتغلون بعزيمة لا تفتر وحماسة لا تلين في تقوية استحكاماتها وإعادة بناء ما دمره العدو من أجزائها؛ بينما كانوا يصرفون بقية أوقاتهم في الصلاة والتعبد وقراءة الأدعية والمناجاة، وطوعوا أفكارهم ورغباتهم لتحقيق الهدف الأهم وهو حراسة معقلهم ضد هجوم عدوهم.

ولم يكن دور النساء في ذلك الحصار أقل أهمية من دور الرجال، فقد ساهمت جميع النسوة بغضّ النظر عن أعمارهن أو مقامهن في الواجب المشترك. فكن يخطن الثياب ويخبزن العجين ويعنين بالمرضى ويداوين ويضمدن الجرحى ويصلحن الاستحكامات ويرفعن ويبعدن ما كان يسقط في الساحات والشرفات من الدانات والمقذوفات التي يطلقها الأعداء، وفضلاً عن ذلك كن يبعثن بوارق

الأمل ويوقدن نيران الشجاعة في قلوب المترددين والضعفاء من صغار الشباب ويحيين إيمانهم.

قد تعزى المقاومة المستميتة التي بذلها المحاصرون بشكل أو بآخر إلى حصانة قلعتهم، ولكن كان لدور شجاعتهم وبسالتهم في الدفاع عن أنفسهم الدور الأكبر، بل حتى النساء اشتركن في الدفاع والقتال. ونقل فيما بعد عن بعض من نجوا بحياتهم من تلك المعارك، أن النساء كن كنساء قرطاجة القديمة، يقطعن شعورهن الطويلة ويربطن بها البنادق المحطمة لتقويتها. وحتى الأطفال لم يتأخروا عن المساعدة بكل ما فيهم من قوة واستطاعة لدعم الصالح العام، وكانت تظهر منهم حماسة لا تقل عن حماسة الأمهات والآباء.

وامتازت روح التضامن والتعاون في الدفاع عن مواقعهم وبطولة إقداماتهم وهجماتهم على نحو جعل الأعداء يعتقدون أن عددهم داخل القلعة لا يقل عن عشرة آلاف شخص. وكان أعدائهم متأكدين أن المساعدات والمؤونة تصل الى القلعة باستمرار لا ينقطع وبطرق خفيّة غير معلومة، خاصة والقلعة كبيرة جداً ولها فتحات ومنافذ سريّة متعددة، لذا كان التصور أن تعزيزات السلاح والعتاد والرجال والطعام لا بد وأن كانت تصلهم باستمرار من أماكن مختلفة، فقد تكون من مدينة نيريز أو من خراسان أو من تبريز أو من القرى المجاورة. لقد كانت قوة المحاصَرين الباسلة تظهر وكأنها لا يمكن زعزعتها أبداً وأن مواردهم لا تفنى ولا تنتهي.

أما في الجانب الآخر، فكانت الأحوال تضطرب والعزائم تفتر بين صفوف الجيش وأهالي زنجان، وأدركوا أنه لا يمكنهم التغلب على تلك المقاومة العنيدة لرجال

الحجة رغم ما يقتل منهم باستمرار كل يوم. وبدأت تنتشر فكرة مخادعة المقاومين بدلاً من محاربتهم ومواجهتم.

واشتد حنق الأمير تومان وغضبه من عناد وتصميم المدافعين ومقاومتهم ومن استمرار وصول رسائل توبيخ السلطات له واحتجاجاتهم الواردة من طهران، فعزم على اللجوء إلى إخضاعهم بوسائل الخداع والمراوغة الدنيئة. ومع اعتقاده اليقين بعبث المجهودات التي يقوم بها في محاربة خصومه في ميدان النزال بشرف؛ أمر ماكراً بوقف القتال، وأشاع بين الناس أن الشاه عزم على وقف الحملة العسكرية كلياً. ونسب الى مليكه أنه لم يكن ميالاً منذ البداية لمساعدة قوات الجيش وتوسيع رقعة الحرب وإطالة أمدها، وأنه تأسف كثيراً على سفك كل تلك الدماء ونشر كل ذلك الخراب لمثل هذا السبب التافه.

فانخدع أهالي زنجان والقرى المحيطة بها وانطلت الحيلة عليهم، وصدّقوا أن ناصر الدين شاه، قد أمر الأمير تومان بالمفاوضة والحوار فعلاً بدلاً من الحرب والنزال للتوصل إلى تسوية ودية بينه وبين الحجة وأتباعه، وإن الملك عزم على إنهاء هذه الحالة التعيسة والفوضى المدمرة ووضع حدّ لكل هذا القتال بأسرع ما يمكن.

ولما تأكد الأمير أن الناس قد خدعوا بخطته الماكرة، وأنها انطلت على أصحاب القلعة أيضا، كتب لهم وثيقة للصلح يؤكد للحجة فيها صدق نيته للوصول الى تسوية بينه وبين أصحابه، وأرفق بالوثيقة نسخة مختومة من القرآن الكريم كشهادة على صدق نيته وعهده. وقال: 'لقد سامحك مليكي. وإني أعلن وأقسم أنك

وأتباعك في حفظ وحماية المليك. وهذا كتاب الله شاهدي على أنه إذا أراد أي أحد الخروج من القلعة، فإنه يكون آمناً من أي خطر.'

وصل مبعوث الأمير في وضح النهار أمام بوابة القلعة وهو يحمل راية بيضاء ليخبر حراسها بما جاء من أجله وبما يحمله من أخبار، فأمر الحجة السماح له بالدخول لمقابلته؛ وما أن استلم منه كتاب القرآن الكريم بالاحترام الشديد وقبّله وقرأ ما جاء في الوثيقة، حتى أمره بالعودة ليخبر سيده بأنه سيرد الجواب اليه في اليوم التالي.

أما هو، فقد جمع كبار أصحابه في ذلك اليوم وأطلعهم على شكّه وعدم ثقته في صدق نوايا الأعداء وأميرهم، متذكراً غدر جيوش المملكة للبابيين في معاركهم السابقة. فقال لمن حوله: 'إن خياناتهم السابقة في مازندران ونيريز لا تزال عالقة في أذهاننا. فما فعلوه معهم يريدوا أن يفعلوه معنا. ولكن مع ذلك سنجيبهم إلى طلبهم احتراماً للقرآن الكريم وليس لعهدهم ونرسل إلى معسكرهم عدداً من الأصحاب للمفاوضة حتى ينكشف غدرهم وخيانتهم.'

*****

بعد سنين طويلة، ذكر أحد الذين نجوا من مذبحة زنجان وإسمه 'مهر علي الحداد'، ما يلي: 'كنت أحد تسعة غلمان لم يزِد عمر أي منا على عشر سنوات، رافقنا الوفد الذي أرسله الحجة من جانبه إلى الأمير تومان، وكان الباقون يزيد عمر كل منهم على الثمانين عاماً. وكان الدرويش صلاح على رأسهم وهو شيخ كبير السن ذا هيبة ووقار عاليين؛ كان طويل القامة أبيض اللحية جميل المحيا محترماً للغاية

لأخلاقه العالية وإنصافه وتقواه. وكان قد كسب فيما مضى قبل أيمانه، احترام سكان المدينة وأصحاب السلطة وعطفهم، لما كان يقدمه من العون والمساعدة لنصرة المستضعفين والمظلومين من أهل زنجان لحصولهم على حقوقهم. وبمجرد أن اعتنق الأمر المبارك رفض قبول جميع الإنعامات والاغراءات التي أنعموا بها عليه ليرتد عن معتقده، ومع كبر سنّه إلا أنه انضم بكل شجاعة إلى جماعة المدافعين عن القلعة.

سار الدرويش صلاح أمامنا طوال الطريق الى معسكر الجنود الذين تجمعوا من بعيد ينظرون الينا، وكان يحمل المصحف المختوم بين يديه ومنشغلاً يكلم أصحابه في تصور ما سيحدث لاحقاً عند اللقاء؛ دخلنا بوابة المعسكر وقابلنا ضباط ليصحبنا إلى قرب مدخل خيمة الأمير تومان، بعد أن اخترقنا صفوف الجنود ومررنا بخيامهم، وهناك وقفنا طويلا ننتظر أوامره بالدخول بينما نظرات الجنود ما زالت ترقبنا وتتفحصنا. مضى وقت الانتظار طويلاً حتى خرج علينا من يأمرنا بالتقدم، فدخلنا باب الخيمة وألقينا السلام عليه وعلى من كان معه، لم يرد على تحيتنا بشيء وعاملنا باحتقار ملحوظ، ثم تركنا واقفين أمامه والصمت يلف المكان وهو يفتعل الانشغال بأمور أخرى لنصف ساعة تقريباً قبل أن يلتفت لمخاطبتنا بلهجة التأنيب والتقريع الشديدين. وصاح في وجوهنا باحتقار وصلف: 'إني لم أرَ طائفة أرذل ولا أحقر منكم.'

وبينما هو يكيل لنا السباب والشتائم، إذ تقدم أكبرنا سناً وأضعفنا، وطلب السماح له أن يتكلم ببضع كلمات. وإذ أذن له، تكلم الدرويش بطريقة أثارت إعجابنا جميعاً، مع أنه كان أمياً، ومما قاله: 'يعلم الله أننا أناس موالون لمليكنا، محترمين

للقانون، وسنبقى كذلك. ولا غاية لنا سوى تقدم مصالح مملكته ورعيته، ولكن أولو البغضاء قاموا علينا وأظهرونا بمظهر غير مظهرنا، ولم نجد أحداً من أعوان الشاه يميل إلى مساعدتنا أو يحامي عنا عنده. وقد توسلنا له مراراً ولكنه تجاهل توسلاتنا وصم آذانه عن ندائنا. فتشجع أعداؤنا إذ رأوا عدم الاهتمام من جانب السلطة الحاكمة، فهجموا علينا من كل الجهات ونهبوا أملاكنا وهتكوا حرمة نسائنا وبناتنا وقبضوا على أطفالنا. وإذ رأينا أنفسنا غير محميين من حكومتنا ومحاطين بأعدائنا، شعرنا بضرورة قيامنا للدفاع عن حياتنا.'

بعد سماع هذه الكلمات، التفت الأمير تومان إلى نائبه الذي كان يجلس غير بعيد منه يسأله النصيحة وما ينبغي عمله في هذه المسألة، بعدما قال: 'إني أجد نفسي حائراً في الإجابة التي أعطيها لهذا الرجل. ولو كنت في قلبي متديناً فلن أتوانى في اعتناق دينه.'

فاذا بالنائب يجيبه بعبارة أثارت تعجبنا، قال: 'ليس هناك إلا السيف، فهو الذي يخلصنا من هذه الضلالة البغيضة.'

فما كان من الدرويش صلاح إلا أن ردّ على هذه الملاحظة بالقول: 'كما ترى، إني أحمل المصحف في يدي، وفيه العهد والإقرار الذي اخترتم بأنفسكم كتابته. فهل ما نسمعه الآن هو مكافأتنا على الإستجابة لطلبكم؟'

وإذ حمي غضب الأمير تومان وانتفخت أوداجه، نادى على حراسه ليأمرهم بنتف لحية الدرويش صلاح وسحبه ومن معه لرميهم داخل زنزانة السجن. ففزعت وباقي الغلمان الذين كانوا معي فزعاً شديداً وعزمنا على الهرب حفاة حتى لا تعيق

النعال سرعة جرينا؛ وفي أول فرصة لاحت لنا، جرينا هاربين باتجاه بوابة المعسكر. فلحق بنا الجنود يركضون خلفنا وتمكنوا من قطع الطريق على بعضنا وأمسكوا بهم ليرجعوهم مقيدين كأسرى. وبينما كنت أركض بكل سرعتي وطاقتي لا أجرؤ على الالتفات خلفي، إذا بيد الجندي الذي كان يطاردني تمتد لتمسك طرف ردائي، فما كان مني إلا أن خلعته وتركته بيده محرراً نفسي منه، وتمكنت بصعوبة بالغة من الوصول إلى بوابة المعسكر المواجهة لمشارف القلعة رغم طول المسافة التي ركضتها بعدما راوغت عدداً من الجنود الذين حاولوا صدّي وقطع الطريق أمامي. وبعدما اجتزت البوابة، بدأ الجنود باطلاق الرصاص خلفي، فكانت المقذوفات تمر من جانب أذني وأسمع أزيزها، وأخيراً بعد جهد جهيد يقطع الأنفاس وصلت أمام بوابة القلعة وأنا في حالة من التعب والإرهاق التامّين، عندها أسرع الحراس بفتحها لدخولي وحمايتي.

كم كانت دهشتي كبيرة عندما رأيت أحد أعضاء الوفد واسمه 'إمام قلي' يقطعه الأعداء بسيوفهم وحرابهم بوحشية عجيبة. وحصل لي رعب شديد إذ نظرت إلى ذلك المشهد مع علمي بأنه في ذلك اليوم كانت الهدنة قد أعلنت بين الطرفين بيمين مغلّظة مبنية على وقف كل أعمال العنف والقتال. وعلمت فيما بعد أن هذا القتيل قد خدعه أخوه الذي أغواه بحجة أنه يود مقابلته والتكلم معه، لكنه سلّمه بهذه الطريقة الغادرة الى أيدي مضطهديه ليذبحوه بهذه البشاعة ويمثلوا بجثته.

بعد دخولي بوابة القلعة، رميت بجسدي على دكة الحرس كي أستعيد بعض أنفاسي وأشرب قليلاً من الماء، بينما راح من حولي يستفسرون عما حدث،

لكني لم أكن أسمع منهم إلا أصوات مبهمة؛ ثم أسرعتُ تواً إلى الحجة وحالة القلق ما زالت تشملني، فقابلني بالهدوء والمحبة وأزال الغبار عن وجهي وأعطاني ملابس جديدة ودعاني للجلوس بجانبه لأخبره بما حصل وما كان من نصيب أصحابه الذين رافقتهم. فوصفت له كل ما رأيته وأعدت عليه كل ما سمعته. فعلق على ذلك بقوله: 'إن هذا هو اضطراب يوم القيامة، ذلك الاضطراب الذي ما شهد العالم مثله أبداً، فهذا هو اليوم الذي "يفر المرء فيه من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه." وهذا هو اليوم الذي لا يقتنع الإنسان فيه أن يترك أخاه فحسب، بل ويضحي بماله ليسفك دم أقرب أقربائه، وهذا هو اليوم الذي فيه: "تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد."

بعد انتهاء لقاءي به، حدث أن كان الحجة جالساً لوحده وسط الميدان منشغل التفكير، حينما إذ دعا أصحابه ليلتفوا حوله ثم قام في وسطهم ليخاطبهم بهذه الكلمات: 'إني مسرور من عزائمكم التي لا تثبط أيها الأصحاب الأحباء، فإن أعداءنا صمموا على إبادتنا. فليس لهم قصد خلاف ذلك. وكان غرضهم أن يخرجوكم بالحيلة خارج القلعة، وهناك يذبحونكم حسب مرغوب قلوبهم. وإذ علموا أن غدرهم ظهر وأن خديعتهم انكشفت، لذلك قاموا، في سورة غضبهم على حبس أكبركم سناً وحبس الصغار معهم. والظاهر أنهم لن يتركوا أسلحتهم أو ينتهوا من سفك دمائكم حتى يستولوا على هذه القلعة ويشتتوكم. وإن استمرار وجودكم في هذه القلعة سيؤول حتماً في النهاية إلى أن العدو سيتغلب عليكم ويأخذكم وعوائلكم أسرى، وبعد

ذلك يهتكون حرمة زوجاتكم وبناتكم ويذبحون أبناءكم. فالأحسن لكم أن تهربوا في جنح الليل وتأخذوا زوجاتكم وأطفالكم معكم. وليبحث كل منكم عن محل آمن يلتجيء اليه حتى يحين الوقت الذي تأمنوا فيه هذه المظالم والوحشية. أما أنا، فسأبقى وحدي هنا داخل القلعة لمجابهة العدو، وحبذا لو كان قتلي يشفي غليل انتقامهم بدلا عن هلاككم جميعاً.'

تأثر الأصحاب من هذا الخطاب إلى أعماق قلوبهم، وأعلنوا والدموع تفيض من عيونهم عزمهم على البقاء والقتال بجانبه حتى النهاية، وصاحوا بصوت واحد: 'لا نقبل أبداً أن نتركك لقسوة هذا العدو المخادع القاتل! وحياتنا ليست أثمن من حياتك، ولا عائلاتنا أشرف سلالة من أقربائك. وإنا على استعداد لتقبل كل مصيبة تصيبنا معك.'

الفصل العاشر
الإبادة والإفناء

وهكذا بقي أصحاب الحجة أوفياء لعهدهم يشجع بعضهم بعضاً، وكان لنساء القلعة دور كبير في تقوية قلوب المدافعين وشدّ عزيمتهم، فالزوجات رحن يشجعن أزواجهن والأخوات ينخين إخوانهن والأمهات يحفزن رجولة أولادهن، عدا البعض منهم ممن لم يتمكنوا تحمل مزيد من الجوع ورؤية آلام القتال وضيق الحصار المتواصل وتوالي بكاء أطفالهم وسوء أحوالهم ومرضهم وشدة جراحهم. فتشجعوا بنصيحة الحجة بعدما تأكدوا أنه لا عيب ولا تخاذل في انسحابهم وترك مواقعهم. لذا اختار هؤلاء على مضض استغلال ظلام أول ليلة لينسحبوا متسللين من القلعة مصطحبين عوائلهم وجرحاهم إلى محل آمن خارجها، بعدما ودّعوا رفاقهم وأصدقائهم بعيون دامعة وقلوب دامية وهم يعلمون جيداً بأنهم لن يلتقوا بهم مرة أخرى في هذا العالم المادي أبداً. وبذلك انفصلوا عن بقية الأصحاب وابتعدوا بهدوء مسرعين يحث بعضهم بعضاً لتلفهم ظلمات الليل وأصوات هبوب الرياح.

من شدة يأس الأمير تومان ونفاد صبره، أمر كل الرجال الأشداء في زنجان بالاجتماع في جوار معسكره فوراً والتأهب لتلقي تعليماته الجديدة. وعندما إلتئم شمل الجميع، بدأ يعيد تنظيم أفواج جيشه ويعيّن ضبّاطهم ويحدد أدوارهم، ثم زاد عليهم أن

ضمّ جحافل المجندين حديثاً من الذين تجمهروا في شوارع المدينة الى صفوف الجند وحدد لهم أدوارهم وطرق مشاركتهم، وفي نفس الوقت ابتدع خطة جديدة في القتال حينما أمر ستة عشر فوجاً من الجنود كل منهم مزود بعشرة مدافع، بالزحف صوب القلعة للقيام بهجوم شامل كاسح عليها. فخصص ثمانية منها للهجوم كل يوم عند الفجر، وبعدها يأتي دور الأفواج الثمانية الأخرى لتستبدلها وتحل محلها لتكملة الهجوم حتى اقتراب ظلام المساء. وكان يتواجد بنفسه مع مجموعة معاونيه في ميادين القتال ضحى كل يوم ليوجه عمليات الجيش وحركاته، مؤكداً لجنوده حصولهم على مكافئات تنتظرهم في حال انتصارهم، ومتوعداً بالعقاب الشديد الذي سيوقعه عليهم مليكهم إذا خذلوه وفشلوا في هذه المرة أيضاَ.

استمرت الهجمات الفتاكة بين الطرفين لمدة شهر كامل، هؤلاء يهجمون لصد الجيوش وإبعادهم وهؤلاء يلاحقونهم حين إلتجاءهم لقلعتهم. ولم يكتف العدو بهجماته المتعاقبة خلال النهار، بل كان يزيد عليها ليهاجم في الليل أيضاً. وكان اشتداد هجومهم واستمراره ووفرة أعدادهم قد أضعف صفوف الأصحاب وزاد في ضيقهم وأعداد قتلاهم وجرحاهم، بينما كانت التعزيزات المكثفة لا تنقطع من الوصول في تلك الأثناء الى الجيوش من جميع الجهات. أما المحاصرون فكانوا يتضورون جوعاً وتزداد آلامهم ويقل عدد رجالهم وذخيرتهم. وأخيراً، ونتيجة لتهديدات البلاط الملكي وتعزيز القوات بالتشجيع والإمدادات بسرعة عظيمة وكبيرة، رجحت كفة المحاصِرين على كفة المحاصَرين، فكانت النتيجة واضحة الحتمية.

في هذه الأثناء، عزم 'رئيس الوزراء' على تقوية موقف الأمير تومان وذلك بتعيين 'حسن علي خان الكزوسي'، الذي تلقى الأمر بالزحف على رأس فوجين من أهل السنّة إلى زنجان. وكان وصوله إشارة لتركيز مدفعية العدو على القلعة بشكل أكثر شدّة وضراوة، مما زاد في عزيمة الجيوش التي انتشرت لتحارب مدافعيها في كل مكان، وشكل إطلاق المدافع الكثيف تهديداً حقيقياً للقلعة بالتخريب والتهديم الفوري. ولكنها مكثت تقاوم لبضعة أيام أخرى رغم اشتداد إطلاق النار عليها وكثرة الاصابات. وظهر في تلك الأيام العسرة من بسالة ومهارة أصحاب الحجة ما دفع ألد أعدائهم للإعجاب بهم.

ذات يوم وبينما كان القصف مستمراً والرصاص ينهمر في كل مكان، إذا برصاصة تصيب ذراع الحجة اليمنى وهو يتوضأ استعداداً للصلاة. ومع أن الألم كان كبيراً، إلا أنه أمر خادمه بأن لا يخطر زوجته بالجرح الذي أصابه، لكن جزع الرجل وخوفه كانا شديدين لم يمكناه من إخفاء عواطفه وكتمها، فكشفت دموعه المنهمرة رغم كفكفتها عن مدى جزعه وروعه، مما دفع ببعض المقاتلين لسؤاله عن حقيقة حالته. وما كاد أن يصرح لهم بما يخالجه حتى وصل النبأ الى زوجة الحجة، فأسرعت مرتعبة باكية تستطلع حقيقة ما حدث، فوجدت زوجها منهمك في صلاته بكل سكون وهدوء. ومع أن جرحه كان ينزف بغزارة، إلا أن وجهه بدا واثقاً مطمئناً. وسمعته وهو يقول: 'اغفر يا إلهي لهؤلاء القوم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون، وارحمهم يا إلهي لأن الذين أضلوهم هم وحدهم المسؤولون عن هذه الأعمال التي ارتكبتها أيدي هؤلاء.'

ثم سعى الحجة الى تهدئة اضطرابها وإزالة خوفها وما أصاب بقية الأقارب والأصدقاء من رعب لمنظر الدماء على ثيابه، فقال لهم يطمئنهم: 'افرحوا لأنني لا أزال معكم، وأطلب منكم أن تتكلوا كلية على إرادة الله. فالذي ترونه الآن لم يكن إلا كنقطة بالنسبة لمحيط الآلام التي سوف تنسكب عليّ في ساعة منيتي، فعلينا أن نرضخ لحكم الله ونرضى بما قسم لنا'.

وما كاد خبر إصابته ينتشر داخل القلعة ويصل أسماع الأصحاب المنتشرين على أسطحها ومتاريسها وأبراجها، حتى ترك كثير منهم أسلحتهم ومواقعهم وأسرعوا إلى رئيسهم من شدة قلقهم عليه. وهنا جاءت الفرصة الذهبية للأعداء، فحالما انتبهوا الى انخفاض نسبة المقاومة وخلو بعض مواقع المدافعين، انتهزوا هذه الفرصة غير المتوقعة ليضاعفوا من هجومهم وتمكن عدد كبير منهم بتشجيع وحثّ ضباطهم الذين كانوا يسابقوهم لدخول القلعة من خلال إحدى فتحات جدرانها، فوصلوا الى ساحتها وبدأوا بتسلق سلالمها الداخلية ليفاجئوا المدافعين ويحتلوا مواقعهم بعد قتلهم، ثم راحوا ينتشرون ليدخلوا في كل بيت وغرفة ويقتلون كل من وقف في طريقهم رجالاً كانوا أم نساء. وبهذا استولى فوج الكرّوس تحت قيادة رئيس القبيلة 'حسن عليخان' على داخل القلعة وانتشر جنوده في كل مكان منها.

عندما انتبه المحاصرون أن الدفاع عن القلعة أصبح أمراً ميئوساً وأن كثرة الجنود قد تغلبت على الكثير من إخوانهم المدافعين وسقط غالبيتهم بحراب الجنود قتلى وجرحى وأسرى، وأن البقاء داخل القلعة سيؤدي حتماً الى مقتلهم جميعاً والمزيد من الخسائر، خرجوا من القلعة ليدخلوا مدينة زنجان مرة أخرى وليحتلوا

كثير من أحيائها وبيوتها الكبيرة الخالية، بعدما تركها أصحابها وهربوا من شدة سير المعارك وتساقط القنابل. وبهذا خسر الأصحاب قلعتهم الحصينة بعدما كانت ملجأهم القوي ليقتصر القتال بينهم وبين الجنود في جانب من أطراف زنجان ويتحول الى حرب شوارع من بيت الى بيت ومن نافذة الى أخرى.

كان أول بيت يقتحمه الفوج الرابع هو منزل 'آقا عزيز'، فلقد كان من الأمكنة الحصينة والقوية في المدينة، واستبسل المدافعون عنه بشدة وبأس كبيرين، لكن الجنود استطاعوا حرقه وإشعال النار فيه بالكامل، مما اضطر المتواجدين داخله للخروج واللجوء الى بيوت خالية أخرى. فعاد جند فوجُ الحرس لينسفوا الخان الكبير الموجود قرب بوابة همدان ويرغموا المتحصنين فيه للخروج منه وتركه؛ ورغم أن الفوج فقد ضابط برتبة نقيب وعدد من الجنود، إلا أنه بقي مسيطراً على الموقع ولم يتخل عنه. ولقد استطاع الجند في ذلك اليوم أسر العديد من النساء والأطفال بما لا يقل عن مائة امرأة، ونهبوا كل ممتلكاتهن وأشيائهن، ورغماً عن اشتداد برد ذلك الشتاء القارس، إلا أن الجنود تركوا أسراهم وأطفالهن عرايا لمدة لا تقل عن خمسة عشر يوماً معرضين لبرودة الليل الشديدة والتي لم تشهد لها زنجان مثيلاً من قبل إلا نادراً، وبقيت الأسيرات في العراء بثيابهن الخفيفة دون غطاء ولا طعام ولا مأوى، بينما لم يكف أطفالهن عن البكاء من الخوف والرعب وكثرة الاعتداءات وشدة الجوع، ولم يكن ليقيهم شرّ البرد وشدته وما هم فيه من البلايا والمعاناة سوى قطع من القماش الخفيفة التي كانت تغطي رؤوسهن، فكن يجهدن في محاولاتهن عبثاً إتقاء لفحات البرد الثلجية القارسة التي كانت تهب عليهم بلا شفقة.

كما تجمع حول مكان حجزهن عدد كبير من نسوة الأعداء من أحياء متعددة في زنجان، وأخذن في كيل الازدراء والسخرية والاعتداء عليهن. وإذ كن يرقصن حولهن بجنون فرحات، كن يوبخنهن صائحات: 'لقد وجدتن الآن ربكنَّ الذي كافأكنَّ مكافأة عظيمة'. واستمروا يبصقون على وجوههن ويسمعوهن أرذل أنواع الشتائم.

كان الاستيلاء على القلعة خسارة كبيرة لا تعوض، حرم أصحاب الحجة من أكبر وسائل الدفاع والمقاومة والحماية، ورغم هذا المصاب الجلل، إلا أنه فشل في توهين أرواحهم أو إضعاف مجهوداتهم. وقد نهب العدو كل ما طالته أيديهم من ممتلكات القلعة وحاجياتها وأخذوا أغلب النساء والأطفال أسرى معهم بعدما قتلوا رجالهن ومدافعيهم وتُركوا دون حماية.

أما باقي الأصحاب ومعهم النسوة والأطفال الذين تمكنوا من الانسحاب والاجتماع في المنازل القريبة من مسكن الحجة داخل المدينة، فكان عددهم ما يزال يسمح بالمقاومة، فقسّموا أنفسهم إلى خمس سرايا انتشرت في الحارات المحيطة، وكانت كل سريّة منهم مؤلفة من ثلاثمائة وواحد وستين رجلاً، تناوبوا ليقوم كل تسعة عشر منهم ليهجموا بصوت واحد صائحين معاً "يا صاحب الزمان" وينقضوا على العدو الذي تحول ليحيط بمداخل حارات المدينة وأزقتها، وكان المدافعون ينجحون بكل بسالة في كل مرة من تشتيت صفوف قوات الجيش المحيطة بهم، وكان تعالي أصوات هؤلاء الشجعان المهاجمين كافياً لشل مجهودات الأعداء وسحق أرواحهم رغم قلة أعدادهم.

واستمر الحال على هذا المنوال الشرس بضعة أيام، جلبت في أعقابها عاراً وخسارة لعدو كان يظن أنه أصبح قادراً على تحقيق نصر مؤكد وفوري بعد تلك الانتصارات المتوالية التي حققها في احتلال القلعة وإخراج أصحابها المدافعين منها. وخلال تلك الملاحم البطولية، قتل الكثيرون من الطرفين وهجر كثير من الضباط مواقعهم وفرّوا من القتال، مما أزعج رؤساءهم وزاد من غضبهم وسخطهم. ولم يكن نصيب ضباط المدفعية بأحسن حال من غيرهم، فقد تركوا مدافعهم وتبعهم جنودهم لكثرة من وقع منهم بحد السيوف ونصال الخناجر؛ وهكذا كان الحال يزداد سوءاً بين صفوف الجيش بعدما أنهكت قوى جنوده وضباطه.

كان الأمير تومان قد أعيته السبل والوسائل التي لجأ إليها للمحافظة على تراصص صفوف رجاله وضمان مستوى نشاطهم ومقدرتهم الحربية وحثهم على الاستمرار في القتال بعدما نال ذلك الانتصار الكبير حين إحتل جنوده القلعة واستولوا عليها، فاضطر مرة أخرى للتفكير بالعودة الى استشارة بقية ضباطه للبحث عن علاج حاسم للوضع الخطير الذي يهدد حياته وجيشه أولاً وحياة أهالي زنجان ثانياً من شدة استماتة ثلة البابيين الباقية في قتالهم العجيب. واعترف قائلاً: 'إني متعب من المقاومة الشرسة لهذه الطائفة. وهم بلا شك مسوقون بروح لا يقدر ملكينا أن يبث مثلها في رجالنا. ولا يوجد عند أي رجل في جيشنا مثل روح التضحية الموجودة عندهم. ولا تقدر أي قوة تحت تصرفي أن تخلص رجال جيشنا من خيبة الأمل التي وقعوا فيها بعدما تحقق لهم الانتصار السابق. فالجنود يعتقدون بأنه حكم عليهم بالهلاك الأبدي سواء انتصروا أو خابوا.'

واستقر رأيهم بعد المشورة على حفر أنفاق من مواقع معسكراتهم إلى أماكن محددة أسفل الحيّ الذي توجد فيه مساكن أصحاب الحجة. وعزموا على نسف هذه المنازل المنيعة حتى يجبروا المعتصمين داخلها على الخروج والتسليم بلا قيد ولا شرط. وهكذا استمر الجنود على هذا العمل المرهق المميت يحفرون تحت الأرض لمدة شهر كامل، بينما أصوات التفجيرات والمناوشات والهجمات والكرّ والفرّ كانت قائمة على قدم وساق بين المدافعين وجموع الجنود تسمع ويشعرون باهتزازاتها فوق رؤوسهم، واجتهد العساكر بعد أسابيع من الحفر تحت أساسات البيوت حتى يملأوا نهايات الأنفاق بالمفرقعات شديدة الإنفجار ويهدموا تماماً ما تبقى من جدران المنازل التي ما يزال بعضها قائماً. ورغبة منهم في الإسراع بالتفجير والهدم، أمر الأمير تومان الضباط الموكلين بالمدفعية تصويب نيران مدفعيتهم على مسكن الحجة، لأن المنازل التي كانت حائلة بينه وبين المعسكر قد سويت بالتراب تقريباً بحيث لم يبق أي عائق في طريق الهدم النهائي للمنازل، وفي نفس الوقت لاشغال المحاصرين وشدّ انتباههم عما يجري من حفريات ونقل للأتربة.

كان جزء من منزل الحجة قد تهدم بقنبلة أصابته أثناء محادثته مع زوجته خديجة التي كانت تحمل طفلها هادي بين ذراعيها، فانكشف جزء كبير من البيت أمام قناصة الجيش، وكان الحجة يحذر زوجته في تلك الأثناء بأن اليوم الذي ستؤخذ فيه أسيرة مع طفلها قد اقترب، وأمرها أن تستعد لذلك الوقت. وبينما كانت تنصت له وهي في حالة من الجزع والفزع الشديدين، إذا بقذيفة مدفع تصيبها وتقتلها

في الحال، بينما طار طفلها من يدها في الهواء ليقع في موقد التدفئة الخشبي، فتوفي الطفل بعد دقائق متأثراً بحروقه في منزل ميرزا أبو القاسم مجتهد زنجان.

ورغم حزن الحجة الشديد لكل ما أصابه من مآسي وأحزان ولفقدان زوجته وطفله، إلا أنه لم يسلم نفسه للجزع والاضطراب، ونادى من أعماق قلبه قائلاً: 'يا إلهي منذ اليوم الذي فيه وجدت محبوبي وعرفت فيه مظهر روحك الأبدية، كنت أدرك مدى الآلام التي سوف تنتابني. ومع أن أحزاني للآن عظيمة، فلا يمكن مقارنتها بالآلام التي أنا مستعد لتلقيها لأجل اسمك. ولن تُقاس حياتي الباطلة ولا فقدان زوجتي وابني ولا تضحية أصحابي وأقربائي بنعمة معرفة مظهرك الذي أنعمت بها عليّ! ولو كان عندي آلاف الأرواح وكل كنوز الأرض وسلطانها، لفديتها كلها في سبيلك عن طيب خاطر وبكل فرح وابتهاج.'

كان لفقدان زوجة الرئيس وابنه والجرح البليغ الذي أصابه، أكبر الأسى في نفوس أصحابه الذين احترقت قلوبهم لهذا المصاب الأليم. فعقدوا العزم على بذل أقصى الجهود والقيام بآخر مجهود في الانتقام لدم إخوانهم المذبوحين. وهنا وقف الحجة مرة أخرى لينصحهم ويردعهم بعدم الإقدام على مثل هذا العمل الانتقامي وأن لا يسارعوا في إشعال النزاع أكثر مما هو عليه. وأمرهم أن يوكلوا الأمر لإرادة الله وأن يستمروا في السكون والثبات والدفاع عن أنفسهم حتى النهاية مهما طال الأمد.

كان عدد الجرحى والقتلى يزداد في كل يوم ويقل سلاحهم وعتادهم وتزداد مصائبهم وتنقص مساحة حارات المدينة التي كانوا يشعرون بأمان بين أطلال بيوتها وأزقتها.

وحدث في صباح اليوم الخامس من شهر ربيع الأول سنة 1267هـ، (8 يناير/كانون الثاني سنة 1851م)، أن توفي الحجة فجأة وهو ساجد في صلاته، بعدما قاسى آلاماً شديدة من جرحه النازف مدة تسعة عشر يوماً. وكانت وفاته الفجائية صدمة قوية لأقربائه وأصحابه زلزلت معنوياتهم. وكان مقدار الأسى الذي عمّ جميع أصحابه لفراق مثل هذا الرئيس القدير الملهم، كبيراً وعميقاً والخسارة فادحة لا تعوض.

عندها عزم اثنان من أصحاب الحجة المقربين، وهما دين محمد الوزير ومير رضاي السردار، الإسراع بدفن الجثة في مكان خفي لا يعلم به أحد من أقرباءه أو الأصحاب قبل أن يعلم الأعداء بوفاته فيزيد ذلك من قوة معنوياتهم. إلا أن أحد أبناء الحجة الصغار، بقي يبكي ويتوسل لمرافقتهما كي يرى عملية دفن جثمان والده. فحملا الجثمان والصبي يتبعهما في جنح الليل إلى غرفة دين محمد الوزير، وهناك دفناها في إحدى زواياها ثم هدما جدران الغرفة فوقها ليضمنا سلامتها وعدم وقوعها في أيدي الأعداء فيمثلوا بها، وبذلا الجهد الكبير في تشويه معالم المكان وكتم سرّ موضعه.

ومع كل ما يجري من قتال ومذابح وحرب ظالمة قائمة لا تتوقف، ومع كل ما يعانيه ويقاسيه هؤلاء الشجعان داخل أطلال بيوت المدينة المنكوبة، اجتمع ما ينوف على خمسمائة امرأة ممن نجين من مأساة خسارة القلعة الرهيبة في منزل الحجة

والمنازل المجاورة بعد وفاته مباشرة ليقيمن مراسيم التعزية، بينما كانت تتساقط الدانات والقنابل قريبا منهن.

أما الأصحاب، فبالرغم من وفاة قائدهم، استمروا في مواجهة قوات الأعداء بحماس لا يكل، وكأنه لم تمض عليهم كل شهور القتال تلك، مع أنه لم يتبق من ألوفهم المؤلفة وذلك الجمع العظيم الذي انضم تحت راية الحجة سوى مائتين من الرجال الأشداء المنهكين. أما الباقون فإما قتلوا أو أقعدتهم أصابتهم عن الحركة، خاصة بعد خسارة الكثير منهم حينما قام الجيش باشعال فتيل براميل البارود التي وضعت تحت أساسات بيوتهم وقاموا بتفجيرها لتتحول الحارات الى ساحات تملؤها الأطلال والخرائب.

وصل خبر وفاة قائد عصبة المدافعين البواسل الى الأعداء، فتشجعوا للقيام بهجوم جديد وعزموا على إبادة البقية الباقية من هذه الفئة الراسخة التي لم يتمكنوا من إخضاعها رغم كل تلك الهجمات التي استمرت طوال الشهور الماضية. فجمعوا كل ما يستطيعون عليه من رجال، وبذلك تجمع جيشاً ممتداً لا يرى له نهاية أحاط بالأماكن والبيوت المهدمة والمتاريس من جميع الجهات، وهكذا شنّت الجيوش بتمامها هجوماً عاماً أقوى وأشد من كل هجوم سابق شارك فيه كل رجل منهم، متشجعين بدق الطبول ونفخ الأبواق وكثرة أعدادهم وانحسار مجالات المقاومة وقلة أعداد من وقفوا أمامهم من المدافعين، ومتشددين بزغاريد النسوة وصيحات الفرح الصادرة من بقية الأهالي، وانقضوا جميعاً من كل جانب على أطلال حارات المدينة وبيوتها المهدمة يتسلقون أسطح المنازل بيتاً بعد بيت ومن جميع الجهات ويقاتلون بوحشية

فائقة عازمين على أن لا يستريحوا ولا يتوقفوا حتى يقضوا على كل مقاومة لباقي الجماعة.

وتلقاء هذا الهجوم العنيف، قرر الأصحاب الخروج لهم وعدم انتظار وصولهم، وصاحوا صيحتهم المجلجلة "يا صاحب الزمان" وهجموا على الجنود ليشتبكوا معهم في قتال ضار شرس في جميع الجهات مستميتين غير وجلين ولا خائفين مما كان يواجههم من حراب الجيش ورصاصهم، واستمروا في معمعة القتال والدفاع حتى تكالبت عليهم الجموع وغلبتهم، فوقع من بقي منهم أسرى بين أيدي أعدائهم.

لكن القتال لم يتوقف ولم يكتف المهاجمون بعد احزار هذا النصر الأخير الشامل بالعودة الى معسكراتهم وثكناتهم. بل أعطيت الإشارة لهم بابتداء السلب والنهب، وإذا بمذبحة جديدة تبدأ مرة أخرى بشكل لم يسبق له مثيل طوال فترة الحرب، لا في اتساع نطاقها ولا في قسوتها ووحشيتها. ولولا أن الأمير تومان نفسه أعطى الأوامر لجنده بترك ما تبقى من منزل الحجة وممتلكاته ويمتنعوا عن استعمال القسوة مع أقربائه ومن اجتمع في خرائب منزله من النساء والأطفال والجرحى، لكان ذلك الجيش السفاك قد ارتكب فظائع أشد وأنكى من كل ما سبق. وكان مقصد الأمير من هذا التحجيم إبلاغ السلطة في طهران بنتيجة الحرب النهائية وانتظار أوامرها فيما يفعله بعد ذلك. لكنه عجز عن منع رجاله من القسوة التي سادت عليهم والهيجان العنيف الذي غمرهم حينما كانت البقية الباقية من الأسرى بين أيديهم.

أما رجال الدين في زنجان، فقد فرحوا بانتصار الجيش وانتهاء القتال فرحاً كبيراً بعدما كلفهم كل هذا المجهود العظيم من خسائر في الأرواح والأموال والرجال، واطمأنت نفوسهم لاختفاء حياة العديد من منافسيهم من الذين تسببوا في فقدان شهرتهم وتقليل كرامتهم، فكانت فرحتهم بدرجة ليس لها مثيل، وبدلا من السكون والإنزواء والركون الى مهماتهم الدينية، قاموا على تحريض الأهالي كبارا وصغارا لارتكاب كل فظاعة يستطيعون عليها بمن تبقى من أحياء القلعة والتمثيل بأسراهم وانتهاك حرمة نسائهم وهتك أعراض بناتهم. فابتدأت عمليات مخزية من النهب والسلب والتقتيل الى درجة أن العامة زحزحوا في هجومهم الحراس الذين كانوا واقفين عند مدخل منزل الحجة وأبعدوهم جانباً، ولما شاهد العوام أن الجند قائمين مثلهم على سلب وتعذيب أسراهم، تشجعوا لقتل من تبقى من الرجال بعد انتهاء ذلك القتال العنيف، بل لم يقدر حتى الأمير تومان ولا حاكم المدينة من تخفيف وحشيتهم أو منعهم من النهب والسلب الذي تملّك مشاعر جميع أهالي المدينة دون تميز. والسبب.. لأن كل من كان يتردد في المشاركة ويحجم عن الاعتداء، كان يعرض نفسه للاتهام بميله نحو دين أهل القلعة، وبذلك سيكون هو وعائلته هدفاً للتعذيب والقتل. لذلك وخوفاً من الصاق هذه التهمة المخيفة بهم، تسابق أهل المدينة في إبداء أشكال وأنواع وحشيتهم، ولم يكن بإمكان الأمير ولا ضباطه، الحفاظ على النظام أمام مثل هذا الاضطراب العام الذي لحق بالواقعة المؤلمة مباشرة، بل عمل الأهالي كل ما في وسعهم ليشفوا غليل انتقامهم بدعم من رجال الدين وتشجيعهم.

وبصعوبة كبيرة، تدبر حاكم المقاطعة إقناع الضباط بجمع ما تبقى من الأسرى والجرحى المثخنين بجراحهم في منزل قديم مهدم لشخص يدعى الحاج غلام، ويحاولوا قدر المستطاع المحافظة عليهم حتى تصلهم تعليمات جديدة من طهران بخصوصهم. فحشر الجنود ما تبقى من جماعة القلعة كالأغنام في ذلك المحل الحقير، معرضين لبرد شتاء قارس وشدة جوع، وكانت الحظيرة التي أدخلوا فيها بلا سقف ولا فرش أو أثاث. فمكثوا فيها يفترشون الأرض والتراب لبضعة أيام دون ماء وطعام.

وبعد مرور عدة أيام، نقلوا النسوة من هناك إلى منزل رجل دين اسمه ميرزا أبو القاسم، أملاً أن يتمكن من ردهن عن دينهن، وفي مقابل ذلك يطلق سراحهن. إلا أن هذا المجتهد الطمّاع تمكن بواسطة نسائه وأخواته وبناته، من سلب الأسيرات كل ما سمح لهن بحمله، فجردت نساءه الأسيرات من ملابسهن، وألبسنهن أحقر ألبستهن البالية، واستولن على ما معهن من أشياء ثمينة كن يخبئنها بين أمتعتهن.

أخيراً.. سمح لعدد من الأسيرات البائسات اللحاق بأقربائهن وأفراد أسرهن على شرط أن يكون هؤلاء مسؤولون عن سلوكهن مستقبلاً، ووزعت الباقيات على القرى المجاورة، بعدما تحملن المشاق والويلات والصعاب الجسيمة.

وبوصولهن على تلك الأحوال المزرية.. قابلهن أهالي تلك القرى بالعطف والمشاعر الصادقة على خلاف أهالي زنجان وقسوتهم. أما أسرة الحجة، فحجزت في زنجان حتى تصل أوامر محددة من طهران بشأنها.

أما الجرحى فبقوا مخفورين مسجونين ينتظرون وصول التعليمات من العاصمة في كيفية التصرف معهم. وفي أثناء فترة الانتظار الطويلة تلك، كانت شدة البرد

وقسوته وما رافقها من تعذيب وعنف قد أودى بحياتهم جميعا في ظرف بضعة أيام ولم يبق منهم أحداً.

وكان محمد خان البگليربجي والأمير أرسلان خان وآخرون من الضباط قد ضمنوا الإبقاء على حياة البابيين بشـــرفهم، ولكنهم نكثوا عهدهم وجمعوا الأسرى والجرحى أمام عساكرهم، وعلى دقّ الطبول وصوت الأبواق وتحت مرأى أهل زنجان وبقية الجنود، أعطوا الأوامر إلى مائة من الجند المنتخبين من الأفواج المختلفة باحضار الأسرى وصفهم صفاً واحداً أمامهم. ثم أصدروا الأمر بالهجوم عليهم وتمزيقهم بسنان الحراب. وقد نفذ الجند ما أمروا به وتسابقوا في الهجوم عليهم وقطعوا أجسادهم إرباً إربا. ثم أخذوا زعيمين منهم، وهما سليمان، صانع الأحذية، والحاج كاظم الگلتوغي، وربطوهما الى فوهة مدفع هاون محشواً بالبارود وأطلقوهما، فتطايرت قطع جسدي القتيلين وتبعثرتا شذر مذر.

ولما تمت عملية الإعدام والتقتيل، صنّفوا باقي الأسرى الى مجموعات، فاختاروا 'ميرزا رضا' معاون الحجة وغيره من أصحاب المنزلة الرفيعة والأهمية بين مدافعي القلعة ووضعوا الأغلال في رقابهم والقيود في أيديهم. ثم قرروا تجاهل المرسوم الملكي وأخذوهم إلى طهران علامة على الانتصار. وأما بالنسبة لبعض التعساء الباقين، من الذين لا يهم موتهم أو حياتهم أحداً، فتركوهم لحال سبيلهم بعد مقاساة كل ذلك العذاب. ورجع الجيش المنصور إلى العاصمة يجرّ معه أسراه المصفدين وهم يسيرون حفاة عراة تحت وابل الأمطار الغزيرة بأقدامهم العارية

ويخوضون في مياه الشوارع والحفر الباردة أمام خيول ضباط الألوية المظفرة وتحت سياط جنودهم اللاسعة لظهورهم ورقابهم.

وإذ وصلوا إلى طهران وجد أمير النظام 'رئيس الوزراء'، أنه من الضروري أن يتفنن ويبتدع نوعاً جديداً من القتل والإعدام، فأمر بقطع عروق يد كل من ميرزا رضا والحاج محمد علي والحاج محسن، فاستقبل الثلاثة هذا الخبر بشجاعة ورباطة جأش، ولكنهم أعلنوا للمتجمهرين حولهم، إن الخيانة التي يدان بها كبار رجال السلطات، ليست من الجرائم التي يرضى الله تعالى أن يرد على مرتكبيها عقاباً بطرق عادية. بل لا شك أنه قد أفرد وخصص عقاباً أشد تأثيراً وترويعاً لمضطهدي أوليائه. وبالتالي فقد صرحوا متنبئين لمن كانوا حولهم يسمعونهم، بأن الله سيعاقَب رئيس الوزراء قريباً بنفس الطريقة التي قرر إعدامهم بها. فلم تأت السنة الثانية على نهايتها، حتى تحققت نبوءة هؤلاء الأسرى الثلاثة، حينما أمر الشاه بقطع شرايين أمير النظام 'رئيس الوزراء' بذات الطريقة التي ارتكبها مع أسراه الثلاثة، وقطعت عروق يديه في حمّام 'فين' العام.



تمثال من الشمع لتقي خان و يظهر طريقة إعدامه بشق عروق يديه في حمام فين
و هو معروض باحد المتاحف الإيرانية.

أمـا باقي الأسرى، فسـلمهم الأمـير تومـان إلى أيـدي الكـرّوسي والخمسـة والأفواج العراقية، مع تعليمات بإعدامهم جميعاً. وساروا بهم في موكب هائج مصحوبين بالطبول والأبواق إلى موقع معسكر الجيش وراحوا يصفّونهم أرتالاً في مقابل الرماة بمجموعات على التوالي حتى انتهوا منهم جميعا. وبعد تنفيذ الإعدام اقتحم المشاهدون من الأهالي ميدان الموت، بعضهم ليبحث عن جثمان صاحب له يدفنه، وبعضهم يدفعهم الفضول لرؤية آثار الموت وآخرون ليسلبوا القتلى أشياءهم. وكان من بينهم رجلاً اسمه 'ولي محمد'، جاء إلى جسد أحد جيرانه ورآه في النزع الأخير ولم يمت بعد.

فقال له يخاطبه: 'أنا جارك ولي محمد. فإذا أردت أي شيء قل لي'.

فأشار له الجريح وهو غير قادر على الكلام، أنه عطشان يريد شربة ماء.

فذهب الجار وأحضر حجراً كبيراً وعاد إلى جاره، وقال له:

"افتح فمك، لقد أحضرت لك الماء."

ولما أطاعه الجريح، رماه بالحجر وسحق رأسه.

أخيراً سار البكلربجي إلى طهران ومعه أربعة وأربعون مسجوناً كان من بينهم ابن ميرزا رضا، والحاج محمد علي، والحاج محسن الجراح. وهؤلاء الثلاثة استشهدوا بمجرد وصولهم، وترك الباقون ليتعفنوا ويموتوا داخل السجون.

واجتمعت كل هذه الأفواج لإيقاع الأعمال الوحشية بهؤلاء المظلومين. فقاموا بالسيوف والسنان على كل من تبقى من الأصحاب، وكان عددهم ستة وسبعون رجلاً، فقطّعوا أجسادهم إرباً بوحشية قاسية فاقت أظلم أعمال الجلادين والمعذبين. وكانت روح الانتقام عند هؤلاء المتوحشين قد فاقت كل حد، وتسابق كل فوج مع الآخر في ارتكاب أكبر القبائح والتوحش التي اخترعتها عقولهم. وأثناء انقضاضهم على ضحاياهم، وثب الحاج محمد حسين والد أبو بصير ووقف على قدميه، ثم صاح بالأذان بصوت مرتفع، أرعب الجموع التي التفّت حوله. ومع أنه كان أعزلاً وقريباً من ساعة وفاته، إلا أنه وبمجرد أن نطق أول جملة من الأذان، وقال: "الله أكبر" بتلك الحماسة والعظمة حتى أعلن جميع أفراد الفوج العراقي امتناعهم عن الاستمرار في أعمال القسوة المخجلة. فانسحبوا تاركين مواقعهم وهم يقولون: 'يا علي!' وفرّوا في فزع واشمئزاز مما يجري منهم ومن غيرهم بهذه القسوة والوحشية البالغة. وكانوا يقولون وهم يولون الأدبار من مناظر الفظاعة وسفك الدماء والتمثيل بجثث

القتلى: 'ملعون الأمير تومان الذي خدعنا، لقد اجتهد أن يقنعنا بإصرار شيطاني أن هذه الفئة هم من أعداء الإمام علي وآله. فلن نقبل بعد الآن أبداً أن نشترك في هذه الأعمال الإجرامية ولو ذبحنا عن آخرنا.'!

كانت أنواع إعدامات الأسرى مختلفة، فمنهم من أطلقوا من فوهات المدافع في الفضاء، وبعضهم جردوا من ملابسهم وصبت على أجسادهم المياه المثلجة في ذلك البرد القارس ثم جلدوا وهم عرايا، وآخرون لطخت أجسادهم العارية بالعسل ليأكلهم الذباب والحشرات وتركوا ليهلكوا على أكوام الثلوج، ورغماً عن كل هذه الإهانات والقسوة، لم يُسمع أن أحداً من هؤلاء الأسرى قد رجع عن دينه أو تكلم بكلمة غضب واحدة ضد معذبيه. ولم تخرج من شفاههم همسة استياء ولم يظهر على وجوههم أي أثر للأسف والأسى. فلم تفلح أي محنة في إطفاء تلك الشعلة التي أضاءت وجوههم بأنوارها ولم تؤثر أي كلمة مهما كانت قبيحة أو سيئة في تحريك السكون البادي على سيماهم.

أما أقارب الحجة فقد جاءت التعليمات من طهران بارسالهم إلى شيراز وتسليمهم لأيدي حاكمها. وهناك ابتلوا بالذلة والفقر والامتهان، وسلبهم الحاكم ما تبقى من أموال ومصوغات ذهبية معهم وحكمَ على ضحايا حقده وجشعهِ بالسكن في منزل خرب تأوي اليه الحيوانات الضالة. وفي هذا المكان المخيف المظلم، توفي مهدي نجل الحجة الأصغر من الآلام والمصائب التي انتابته هو وأسرته طوال تلك المدة، ودفن في زاوية من المكان الذي كان يأوي إليها في ساعات حزنه ويأسه دون أن يعلم سبب كل تلك المآسي وذلك الحقد والعذاب الذي نزل على رؤوس عائلته.

أما عدد الذين سقطوا في خضم هذه المعارك فلا إحصاء دقيق لهم لحد الآن. وكان عدد الذين اشتركوا في هذه الملحمة كثيرين جداً، واستمر الحصار زمناً طويلاً، وتعددت واختلفت الروايات في عدد الشهداء الذين حاربوا وسقطوا تحت راية الحجة في زنجان، فقد قدّرهم بعض المؤرخون بألف رجل وإمرأة وطفل، وآخرون بأكثر من ذلك. وسَجل فيما بعد أحد الناجين أسماء القتلى فكانت قائمة ضمّت ألف وخمسمائة وثمانية وتسعين شخصاً قبل وفاة الحجة، أما عدد الذين قتلوا بعد ذلك فبلغ المئات.

خاتمة الرزايا

بعدما انتهى هؤلاء الطغاة من عملهم، لم يكتفوا بانتصارهم، بل أرادوا إهانة أجساد أعدائهم والتمثيل بها، وكانوا متلهفين لاستجواب من بقي حياً من المدافعين لمعرفة مكان دفن جثة الحجة، ورغم قسوة التعذيب الذي أوقعوه عليهم، إلا أنهم رفضوا الكلام لعدم علم أغلبيتهم بمكانها، ولما جاء دور آقا دين محمد الذي دفن جسد الحجة بيديه، حاولوا معه في البداية بكل وسيلة ممكنة، إلا أنهم لم يستحصلوا منه على شيء، فما كان منهم إلا أن راحوا يصبّون الزيت المغلي على

رأسه، ومع ذلك لم يتكلم وبقي يتحمل آلامه صامتاً حتى فاضت روحه. ثم ابتدأوا يبحثون عن الجثمان وكشف موقعه الذي أخفاه فيه صاحبيه بكل حرص. فلم تنجح أعظم أنواع التعذيب والوحشية التي أوقعوها على الأسرى في الكشف عن الموقع الخفي. وعجز الحاكم في البحث والتنقيب بين كل تلك الخرائب والأطلال رغم كثرة من سخرهم من الجنود. وأخيراً أحضر قائد مجموعة الجيش ابن الرئيس (الحجة) المتوفى أمامه، وكان عمره سبع سنوات، وإسمه آقا حسين، واجتهد القائد أن يتحايل عليه ويقنعه ليبوح بسره.

كان الطفل قد حصل على فرصة وشاهد بحزن كبير صاحبي والده وهما يدفنانه في غرفة أحدهما. فقال له القائد وهو يلاطفه: 'يا بني إنني ممتلئ حزناً وأسفاً لعلمي بالمصائب التي وقعت على والديك، ولست أنا الملام في ذلك، بل مجتهدو زنجان ورجال الدين هم المسؤولون عن الجرائم والقبائح التي ارتكبت بحق أبويك وأصحابه. وأنا الآن موافق على دفن رفات والدك في مدفن لائق به، فهو رجل مؤمن ولا بد من احترامه ودفنه بالطريقة اللائقة، وآمل بذلك أن أكفر عن الأعمال المخجلة التي ارتكبها الجيش ضده.'

ومن خلال التهديدات المكرة والإغواء والمديح والوعود الكاذبة، صدّق الطفل كلام قائد الجيش وكشف له عن موقع قبر والده. وبمجرد أن سمع حاكم زنجان اللئيم ما تفوّه بي الصبي، أرسل رجاله على الفور الى موقع الغرفة المهدمة لنبش أرضيتها وإحضار رفات الحجة. وما كادوا يحضرونها ويتم لهم مرغوب أفئدتهم،

حتى أمروا بربطها بحبل وسحبها على أصوات الطبول والأبواق في شوارع زنجان وأزقتها.

ووقع على جسد الحجة لمدة ثلاثة أيام بلياليها من التمثيل والإهانة ما لا يقدر القلم على وصفه، فكانت الجماهير في كل يوم من الصباح حتى آخر الليل، تضربها بالعصي وترمي عليها الأوساخ والأزبال ويشتمونها ويبصقون عليها وهم يتضاحكون ويمرحون. وهكذا تُرك الجثمان ممزقاً مشوهاً تغطيه الأوساخ والأتربة وتجتمع عليه مجاميع الذباب والحشرات والجرذان في الميدان معرضاً لأنظار العامة وسخريتهم.

وفي الليلة الثالثة، والجثة على هذه الحالة المزرية البغيضة، حدث أن جاء عدد من الخيالة بأسلحتهم في بهيم الليل، ونجحوا في حمل الجثمان الممزق ونقله إلى محل آمن في طريق قزوين ودفنوه هناك . *

انتهى